وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
جامعة محمد خيضر – بسكرة –
كلية الآداب واللغات
قسم الآداب واللغة العربية

بناء القصيدة المدحية في شعر لسان الدّين بن الخطيب الأندلسي

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في الآداب واللغة العربية.
تخصص : أدب عربي قديم

إعداد الطالب :
محمد الأمين بركات

إشراف الدكتور:
عبد الحميد عباسي

الموسم الجامعي:
1435/ 1436هـ
2014 / 2015 م

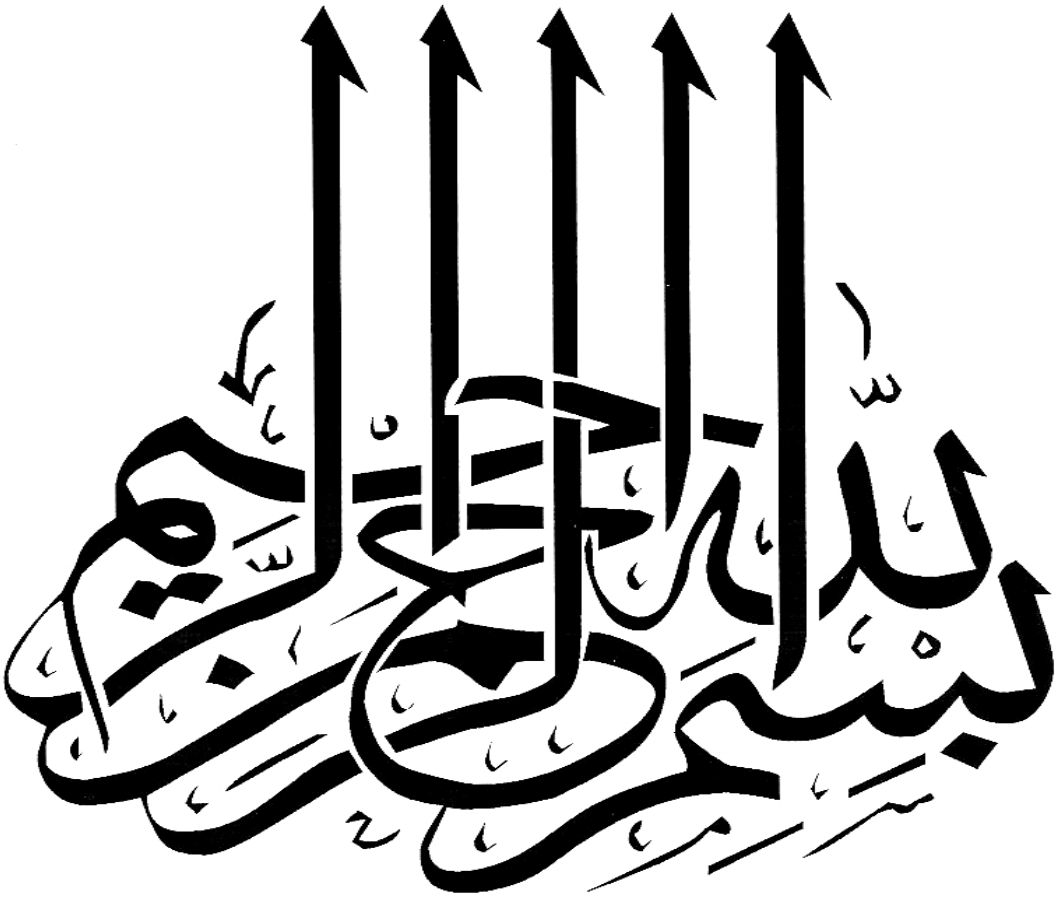
بسم الله الرحمن الرحيم

شعر ترحيبي :

أمامي من الأشخاص ثلاثة أجـــلاء *** بـهم يزدان المـكان ويحـلو اللقاء

جعلت امتداحي فيكم كصنع ابن الخطيب* بمدح الملوك والمدح فيه أشيـــاء

إليكم معشر الفضلاء أبث التحايا *** فطاب نظمي وفي الكرام يحق الثناء

وقولي بتاتا لم يأت بدعا من خيالي*** ولكن حقّ يقال والحق نور وضيـــاء

بكبيرنا قدرا وفضلا يطيب الكلام *** فورار يغترف من أندلسنا مايشاء

وعباسِيُّنا زان المكان أَبَهةً وجمالا *** وقد لحقه مني تعـــبٌ وعنـــاء

وأكرم بحياة فمن دروسها استفدنا *** وأكثر من ذلك الخلق الحيـــــاء

دروسكم أحبتنا دَيْن علينا ** ومامن دين إلا ،وله حتما قضـــــاء

وأنعم بالجموع والجمع حافل *** والمجلس الصغير قد علاه البهـــــــاء

محمد الأمين بركات

"شكر و عرفان"

بسم الله والصّلاة والسّلام على رسول الله خاتم الأنبياء والمرسلين .

مصداقا لقول النبي ﷺ : «من لم يشكر الناس لم يشكر الله »

أشكر الله عز وجل الذي وفقني لانجاز هذا البحث، كما أتقدم بأسمى معاني الشكر والعرفان الى الأستاذ المشرف" **عبد الحميد عباسي**" على حسن إشرافه على موضوعي، وعلى ما قدّمه لي من توجيهات قيمة طيلة فترة إنجازي لهذا العمل

كما لا يفوتني أن أتقدّم بفائق الشكر والامتنان للاساتذة الذين ساعدوني في انجاز هذا البحث، وأذكر من بينهم الدكتور المحترم "**جمال مباركي**"

وأيضا أشكر الأستاذ "**باديس لهويمل**" على ما منَّ به من معلومات أفادتني كثيرا ، وإلى كلّ من لهم يدٌ سابغة عليَّ في هذا البحث .

مقدمة

مقدمـة :

لِاسْمِ الأندلس في النُّفوس إيقاع شجي عميق آسر، يحمل في طياته أصداء قرونٍ من التوهج، يعيد للخاطر أمجادا ،وأسماء أعلام لاتُنسى ، تفيض لها النَّفس بمجرد ذكر مآثرها وآثارها ، فقد كانت شمعة وضّاءة ،وميدانا يزْفُل بالعلوم في شتّى المجالات ، إذ نبغ فيها علماء، وأدباء، ومفكّرون، أوْدَعُوا مكتباتنا كمًّا هائلا من المعرفة ، خاصة في مجال الأدب والفنون ، حيث عكف المتأخّرون على هذه المعارف بالشرح ،والتحقيق، والدراسة .

وبالرغم من كثرة هذه الدراسات التي دارت حول الموروث الأندلسي ، نجد أنَّ بعض أعلام الأندلس لم يُحْظَوْا بالعناية الكافية في خِضَمِّ هاته الدراسات ،نظرا للمكانة التي تتقلّدها تلك الشخصيات ،وكان من جملة أولئك الأعلام لسان الدين ابن الخطيب الشاعر الناثر؛ الذي ملأ آفاق الأندلس، وغيرها شعرًا ونثرًا ، فأشعارُه مازالت منقوشة في قصور غرناطة ، ورسائله وخطبه في الأنام مبثوثةٌ .

من هذا المنطلق إرتأيت أن يكون موضوع بحثي حول هذه الشخصية الفذّة التي حلَّقت عاليا في سماء الأندلس ، فجاء عنوان البحث موسوما ب : **بناء القصيدة المدحية في شعر لسان الدين بن الخطيب الأندلسي** أمّا عن أسباب اختياري لهذا البحث فلأمور منها : رغبتي الشديدة في التّبحر في الأدب الأندلسي ،وكذا اِطِّلاعي المُسْبق على شخصيات أندلسية نبا بها الدهر في أُخْرَياتِ حياتها، من بينهم ابن الخطيب الذي تأثرت بنكبته أيَّمَا تأثُّرٍ ومن بين الأسباب كذلك ضآلة ما كُتب عن هذه الشخصية ، وذلك من ناحية نتاجه الشعري والدارس للأدب الأندلسي يلحظ ذلك .

وبالاستناد لهذه الأسباب ضبطت موضوع البحث في الاشكالات الآتية :

كيف بنى ابن الخطيب قصائده المدحية ؟ وهل كان مقلدا أم مجددا في أشعاره ؟ وكيف صاغ تجربته على المستوى الفنِّي ؟

أمَّا عن المنهج الذي اِعتمدته في هذا البحث فكان المنهج الفني ؛الذي يكشف عن السمات الفنيّة للخطاب المدحي في قصائد ابن الخطيب؛ كما استعنت بالمنهج التاريخي؛ الذي من خلاله رصدت الحالة السياسية ، والاجتماعية ، والأدبية لعصر الشاعر .

وجاءت هذه الدراسة في خطة اقتضت أن تكون على شكل مدخلٍ، وفصلين، وخاتمة فكان المدخل إطلالة سريعة على البيئة السياسية ،والاجتماعية والادبية ، وكذا حياة الشاعر ونشأته ، أما الفصل الأول فتناولت فيه هيكل القصيدة لدى ابن الخطيب في قصائده المدحية ، واندرج تحته عناصر هي : القصيدة المركبة ،وما تضمَّنَتْه من مطلع ومقدمةٍ ركّزت على ثلاثٍ منها (الطَّللية ،والغزلية ،الحماسية) ،وتناولت أيضا التخلص،ثم الموضوع الرئيس، فخاتمة القصيدة ، لأنهي الفصل الأول بالقصيدة البسيطة لدى ابن الخطيب.

أما الفصل الثاني فقد خصصته لدراسة اللغة الشعرية؛ التي تضمنت عنصرين هما الموروث الديني، واستلهام الموروث الشعري،لأتطرق بعدها للحديث عن الصُّورة بجانبيها البياني والبديعي، ثم أعَرِّج إلى تَتَبُّع الأوزان والقوافي، لتأتي الخاتمة في الأخير شاملة لأهم النتائج المتوصل إليها في هذا البحث.

وقد اِسْتقيت مادة بحثي من جملة مصادر ومراجع كان أهمُّها : "ديوان ابن الخطيب بتحقيق الأستاذ محمد مفتاح" ، و"الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب" ، و"نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري"، و"الأدب العربي في الأندلس لعبد العزيز عتيق" و"العمدة في محاسن الشعر لابن رشيق"، و"بناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء النقد الحديث لحسين بكّار" ، و"موسيقى الشعر لإبراهيم أنيس".ومصادر ومراجع أخرى.

وكَكُلِّ بحث لايخلو من صعوبات فقد واجهتني بعض المصاعب والمثبطات، إلا أنَّها زادتني إصرارا على إكماله وإنجازه، ومن تلكم الصُّعوبات :

قلة الدراسات التي تناولت ابن الخطيب، بالإضافة الى صعوبة المفردات،وغموضها في بعض الأحيان، والتي أصادفها في قصائد ابن الخطيب وماذاك إلا لبعد الفترة الزمنية لذا لجأت الى المعاجم لفهم تلك المفردات .

وختاماً أتوجّه بالشكر الخالص إلى أستاذي المحترم "**عبد الحميد عباسي**" على متابعة البحث بجدٍّ وإخلاص ، وما أمدّني به من توجيهات قيّمة ، فقد كان حريصا على توجيه الأفكار، وتصويب الأخطاء.

وأخيرا أحمد الله على تمام هذا البحث المتواضع ، ولست أدَّعي الكمال لدراستي هذه ، فالكمال لله وحده ، وحسبي أنَّني أخلصت العمل، وبذلت الجهد غايتي خدمة لأدبنا العربي عامة ، والتراث الأدبي في المغرب والأندلس، وتقريبه والتعريف به خاصة.

مدخـــــل : الشاعر وبيئته .

تعاقبت على الأندلس حضارات متعددة، حملها إليها كثير من الأمم الأخرى،وبسبب ذلك فقد حفلت مناطقها بمعالم حضارية وثقافية متنوعة، وزادها في هذا ما جلبه إليها العرب من تقدم كان على الصعيديْن الماديّ والروحيّ.

وقد كان لغرناطة النّصيب الأوفر من معالم ومآثر هذا التقدم، وساعدها في ذلك موقعها الجغرافي وخصائصها الطبيعية المتميزة، علاوةً على ذلك أنها كانت آخر القلاع والحصون التي خرجت من أيدي المسلمين في الأندلس، فكانت الملاذ الأخير للعرب والمسلمين، الذين هُجِّروا مكرهين من ديارهم بعد أن اشْتَدَّتْ عليهم نار النصارى، فاستقروا في حمى هاته المدينة، التي تحولت إلى دولةٍ ذاعت شهرتها وأصبحت حضارتها مركزا يؤمه الأدباء والمفكرون من شتى أنحاء البلاد[1]، وخاصة في ظل حكم ملوك بني الأحمر، حيث تأسست مملكة غرناطة على أيديهم كما يقول ذلك المقري في كتابه نفح الطيب[2]، وكان مؤسسها الأول محمد بن الأحمر الملقب بالغالب بالله الذي دخل غرناطة تلبيةً لرغبة أهلها في رمضان من العام 635هـ فصارت منذ ذلك التاريخ تُسَمى بمملكة بني الأحمر، وحاول مؤسسها منذ تسلمه مقاليد الحكم فيها أن يثبِّتَ أقدام مملكته التي صار الحكم فيها من بعده وراثيا[3].

---

[1]– ينظر: يوسف شكري فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر(دراسة حضارية)، دار الجيل ،بيروت ، لبنان، ط1 1993، ص 169 .

[2]– ينظر: أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق احسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ط 1، 1968، ص 447.

[3]– ينظر: يوسف شكري فرحات،غرناطة في ظل بني الأحمر، ص 20 .

1- البيئة السياسية:

كانت وسيلة دولة بني الأحمر في الدفاع عن نفسها سياسة المهادنة والمدارة، بدفع الجزية حينا وبالجهاد حينا آخر، مستعينة بدولة المرنيّين في المغرب، والتي كانت لهم خير ملاذٍ، فقد جعل سلطانُها مجموعة من المجاهدين المغاربة في الأندلس، وجعل عليهم رئيسا عُرِف بشيخ الغزاة، كما أن بعض سلاطينها خصَّصَ لأهل الأندلس في كل عام من الطّعام وغيره إعانة لهم على جهاد العدو، دون أن تتأثر ببعض المشاحنات التي كانت تَعْتَوِرُ العلاقات بينهما بين الحين والآخر.

« ولقد بلغت العلاقة أوجَّهَا بين المغرب، وغرناطة في عهد أبي الحجاج يوسف الأول (733-755هـ)،حيث اتّحدت قواتهما ضد النصارى، ففي سنة (740هـ) حدثت معركة كبيرة قُتِل فيها ابن سلطان المغرب»[1] ، فعندئذ عَزم السلطان أبوالحسن على العبور بنفسه إلى الأندلس ليثأر لتلك الهزيمة المؤلمة، فجَهَّز الجيوش، والأساطيل الضخمة، وبلغ أسطول المغرب يومئذ مائة وأربعين سفينة منها عدد كبير من السفن الحربية فنزل بسهل طريف سنة (741هـ)، ولحق به السلطان يوسف في قوات الأندلس[2]،حيث هَزَم جيش النصارى المسلمونَ شر هزيمة وأُسِر فيها "تاشفين بن أبي الحسن سلطان المغرب، وقُتِل فيها خلق كثير، وسُبِيَ كثيرٌ من النساء [3].

« وبعد "**وقعة طريف**"*، تغلب نصارى الأندلس على الجزيرة الخضراء وأخذوها صلحا سنة(743هـ)، بعد حروب عظيمة»[4]، "ثم عاودوا المحاولة للاستيلاء على جبل

---

[1]- عبد الحليم حسين الهروط، النثر الفني عند لسان الدين بن الخطيب، دار جرير، عمان، الأردن، ط 1، 2006 ص 30،31.

[2]- ينظر: محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس: العصر الرابع نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط4، 1997، ص 127.

[3]- ينظر: عبد الحليم حسين الهروط، النثر الفني عند لسان الدين بن الخطيب، ص 31.

*وقعةُ طريف : دارت هاته المعركة بين جيش المسلمين المكوَّن من قوتي المغرب ،والأندلس ضد النصارى وانتهت بهزيمة المسلمين. تاريخ ابن خلدون، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، لبنان، (د ط) 2000، ج 7، ص 446.

[4]- أبو العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى في كتابة الإنشا، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، (د ط)، ج5 ص262.

الفتح فحاصروه، وشدوا على مُخَنَّقِه، وأحكموا الطَّوْق عليه سنة (750هـ) وكاد أن يسقط بأيديهم لولا انتشار الوباء في جيش النصارى، وهلاك مَلِكِهِمْ فيه، ممّا اضْطَرَّهُم إلى رفع الحصار عنه سنة (751هـ)، بعد أن دام عشرة أشهر.

بعد أن خفت وطأة النصارى تنفّست غرناطة الصُّعداء، وعُقِدتْ المعاهدات لحاجة الطرفين لها، بعد أن أخذ وباء الطاعون الذي عم البلاد منذ (749هـ) منهم كلَّ مأخذٍ،وأصبحت غرناطة خلال هاته المعاهدات تعيش عصرا مليئا بالسؤدد والرخاء حتى حصل ما عكر صفو الأمور، فالمؤامرات والفتن مازالت قائمة، تلك العادة التي ابتلوا بها، وكأنهم جبلوا عليها، فقد قامت فتنة أسْفَرت عن قتل أبي الحجاج يوسف الأول في أثناء سجوده في صلاة الفطر سنة(755هـ).[1]

«بويع محمد الخامس بعد مقتل والده سلطانا على غرناطة، وكان قريبا من نفوس الناس، فتمشَّتْ أيامه على أتَمِّ ما يكون من الأمان، وخِصْبِ الزَّمان، وقد بادر أوَّلَ أمره بإيفاد وزيره لسان الدين إلى المغرب، توطيدًا للعلاقة، وتوكيدًا لها ،فضلا عن طلب العون والمساعدة، تلك العادة التي تتكرر كلما زار المغرب زائر فعاد لسان الدين في المحرم من سنة (756هـ) بأفضل ما عاد به سفير»[2].

غير أن هذا الاستقرار لم يدم طويلا ، حتى دبَّت الفتن من جديد، فقد تزامنت الفتن في عدوتيْ المغرب والأندلس، إذ وقعت ثلاث ثورات دموية في المغرب منذ عام (759هـ) لم تهدأ حتى سنة(763هـ)[3]، أمّا في غرناطة فقد تغلب إسماعيل بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن نصر على أخيه السلطان محمد بن يوسف، في شهر الصوم من عام (760هـ)، ولكن الأمر يزداد سوءً، وغرقت غرناطة في الفساد، فبعد عام من استيلاء إسماعيل على الحكم قُتِلَ هذا الأخير[4]، حيث ثار عليه ابن عمّه ليلة السابع والعشرين من

---

[1]– ينظر :عبد الحليم حسين الهروط، النثر الفني عند لسان الدين بن الخطيب، ص 31

[2]– المرجع نفسه:32.

[3]–ينظر: المرجع نفسه، ص 33.

[4]– ينظر: لسان الدين ابن الخطيب، أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق وتعليق: ليفي بروفنسال، دار المكشوف، بيروت، لبنان، ط 2، 1956، ص 306.

شهر شعبان في السنة المذكورة وحبسه وقبض عليه، وهو في برج عظيم مطلٍّ على البلد، فاستعطف إسماعيل بن فرج ابن عمه، لكن هيهات فالملك عقيم، فقُتِل هو، وأخوه الأصغر قيسا، ورُمِيَتْ جثتيْهِما بالعراء مغطاة بأسمالٍ إلى أن وُورِيَا فكان في أمرهما عبرة.[1]

بعد ذلك تمكّن السلطان "محمد الخامس الغني بالله" الملقب بالمخلوع، من استعادة ملكه ، وذلك بمساعدة سلطان المغرب. الذي آزره في العبور إلى موطنه، حيث انطلق السلطان محمد من رندة إلى مالقة، فأطاعته، وتبعها كثير من المناطق، ثم سار إلى غرناطة، فدخلها في جماده الآخرة سنة(763هـ)، و استعاد ما سلب منه فقضى على خصومه ومناوئيه، وهرب البرميخيو* هو وحاشيته إلى قشتالة ليكون ملاذا له، لكن هذا الأخير قد اقتصَّ منه لسابق عهدٍ بينهما، فما كان منه إلا أن قتله ،وأرسل رأسه ورؤوس من كانوا معه إلى محمد الخامس؛ توحيدا للحلف بينهما، وتأسيسا لعلاقة جديدة قوامها التعامل بين الدولتين.[2]

ولما استقرت الأمور تربع السلطان محمد الخامس العرش، نادى وزيره لسان الدين بن الخطيب رفيقه في النفي بالمغرب، فأجاب بن الخطيب نداء السلطان، ليحتل سابق حظوته التي كانت قبل النفي إلى المغرب، بيْدَ أن تلك الحظوة لم تدم طويلا، فقد شعر لسان الدين بما كان يحاك حوله من الدسائس، وما يُنْسَج حوله من سعايات، وذلك للإيقاع بينه وبين الغني بالله، فما كان ابن الخطيب إلا أن يحزم أمره على مغادرة الأندلس، ثم اللجوء إلى المغرب نهائيا، واستأذن السلطان للخروج بدعوى التفتيش في الشواطئ الأندلسية.[3]

---

[1]– ينظر: لسان بن الخطيب، اللمحة البدرية في الدولة النصرية، تحقيق محمد مسعود جبران، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 2009، ص154.

*البرميخيو:هو أبو عبد الله محمد الغالب حكم (761–763) ومعنى كلمة البرميخيو الأشقر المائل الى الحمرة.

[2]– ينظر: عبد الحليم حسين الهروط، النثر الفني عند لسان الدين، ص 34.

[3]– ينظر: لسان الدين بن الخطيب، أوصاف الناس في التاريخ والصلات، تحقيق محمد كمال شبانة، مطبعة فضالة المحمدية، المغرب،(د ت)،(د ط)،ص 16و 17.

ولكن بعد خروج بن الخطيب من الأندلس، وقع شرخ كبير، وتوترت العلاقة بين الأندلس والمغرب، ولم ينتهِ هذا التوتر إلا بعد القضاء على لسان الدين بن الخطيب.

و بعد كل هذه الأمور التي جرت ظل محمد الخامس يتمتع بأمان كبير في بلاده ويمتلك القوة العسكرية الكبيرة التي يُحْسَب حسابها، حتى وفاته سنة(793هـ)[1] ، ثم تقلد أبناؤه، وأحفاده من بعده الحكم، فدبَّ الوهن في دولة الإسلام في الأندلس، وكان لموت محمد الخامس إيذانا لنشوب الخلافات الشديدة بين بني الأحمر أنفسهم،ومحاولات الإسبان للاستيلاء على غرناطة حتى سقطت بأيديهم.[2]

2- البيئة الاجتماعية:

كان للحياة السياسية في مملكة غرناطة أكبر أثر في الحياة الاجتماعية هناك، فقد كانت هاته المملكة على صغر رقعتها ملجأ كل الأندلس المغلوبين على أمرهم ،وكانت موطنهم الجديد بعد أن سقطت مدنهم بيد الاسبان، لذلك فقد شملت مملكة غرناطة عناصر بشرية متعددة، ومع ذلك ظل المجتمع فيها محصورا على العربي واليهودي والبربري وأهل البلاد.

وكانت الغالبية العظمى من سكان غرناطة هم العرب،فقد عّدد ابن الخطيب الأنساب العربية وذكر منها « القرشي، الفهري، الأنصار، المخزومي، القحطاني، الحميري، الكناني، التميمي، الأسدي... وغيرها من الأنساب العربية.»[3]

أما المجتمع الغرناطي فكان مجتمعا طبقيا فيه الأحرار والعبيد، فيه الخاصة وهم التّجار وكبار المَلاَّكين الذين يشكِّلون الطبقة الأكبر نفوذا ومكانة، وفيه العامة وهم:الأجراء والفلاحون الذين تميزوا بالبساطة، والذين يشكلون الطبقة الأخيرة في المملكة، وعلى الرّغم من هذا الاختلاف الطبقي إلا أن العصر الذي وُجِدَتْ فيه مملكة غرناطة

---

[1]- ينظر: عبد الحليم حسين الهروط، النثر الفني عند لسان الدين، ص 35.

[2]- ينظر: صلاح جرار، قراءات في الشعر الأندلسي، دار المسيرة، عمان، الأردن، ط1، 2007، ص 47.

[3]- لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة مصر، ط 2، 1973، المجلد الأول، ص 135 .

كان يتَّسم بالاستقرار والولاء للسلطة النّصرية في عهد القوة والازدهار،وحين ضعفت المملكة حصلت انقسامات اجتماعية بين السكان أدَّت إلى سقوط غرناطة في النهاية.[1]

وقد أشاد ابن الخطيب بالمجتمع الغرناطي،وبأخلاق أهله وديانتهم ،وحسن طاعتهم للأمراء، ووصَفَهُم ،ووصَفَ نسائهم بالجمال، والرشاقة ونبل الأخلاق،رغم مبالغتهن في الزينة والتبرج، أما لباس أهل غرناطة، فكان يلائم كلَّ فصْلٍ، فكانوا يلبسون الكتان والقطن والأرْدِية الإفريقية، والمقاطع التونسية.

«أما مذهبهم في الدين والعقائد فهو مذهب الإمام مالك (ت 179) إمام دار الهجرة»[2]،أما عن الجند في مملكة غرناطة "فهم صنفان:الأندلسي، وبربري، الأندلسي منه يقوده أحضياء الدولة، وزيُّهم في القديم شبيه بزي جيرانهم وأمثالهم من الروم في أسباغ الدروع، وتعليق الترسة، وجفاء البيضات ...

والبربري منه ترجع قبائله المرينية، والزيانية، والتيجانية، والعجيسية والعرب المغربية إلى أقطابٍ ورؤوسٍ، يرجع أمرهم إلى رئيس على رؤسائهم، وقطب لعرفائهم من كبار القبائل المرينية، يَمُتُّ إلى ملك المغرب بنسب.[3]

ويصوّر لنا ابن الخطيب مظاهر الحياة العامة للمجتمع الغرناطي فيقول:« ومبانيهم متوسطة، وأعيادهم حسنة مائلة إلى الاقتصاد، والغناء بمدينتهم فاش حتى بالدكاكين التي تجمع كثيرا من الأحداث.

وقوتهم في الغالب البُرُّ الطَّيِّبُ عامةً، وربما اقتاتوا في فصل الشتاء الضعفة الذرة العذبة ، وفواكِهُهُم رَغْدَةٌ ، والعنب يجر لإنافة كرومه» [4] ، ثم يأتي ابن الخطيب على وصف ما يتقلَّده أهالي غرناطة، من الذهب، والفضة، والأحجار الكريمة فيقول: «وحُلِّيُهُمْ

---

[1] –ينظر: لسان الدين بن الخطيب، اللمحة البدرية في الدولة النصرية، ص 63– 64.

[2] – المصدر نفسه، ص 64 .

[3] – ينظر: المصدرنفسه ، ص 65.

[4] – ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص 66.

في القلائد ،والدمالج، والخلاخل، والشُّنُوفِ الذهب الخالص، إلى هذا العهد في أولي الجِدَّةِ، واللُّجَيْنُ* في كثير من آلات الرجلين فيمن عداهم.

والأحجار النفيسة من الياقوت والزبرجد والزمرد ونفيس الجوهر كثير فيمن ترفع من طبقاتهم المستندة إلى ظل الدولة، أو أعرق أصالة موفورة».[1]

3- البيئة الفكرية والأدبية:

ازدهرت الحضارة الأندلسية في مجالات متعددة كالعمارة والزخارف البديعة، وكان قصر الحمراء من أهم الشواهد على ذلك في هذا الشأن، وكانت الحركة الفكرية آنذاك محصورةٌ في النَّواحي الأدبية، فقد ازدهر الأدب والشعر، وحفلت غرناطة بجمهرة من أكابر الأدباء والشعراء، وكان حظ العلوم العقلية قد أصابه الركود، فقلما نجد في هذه الفترة أحدا من أقطاب الطب أو العلوم الرياضية والفلسفية وغيرها من العلوم العقلية التي ازدهرت من قبل في الأندلس، هذا وقد احتفظت الآداب في مملكة غرناطة بروائها وازدهارها حتى اللحظة الأخيرة من تاريخها.[2]

ويرجع الفضل في ازدهار الحركة الأدبية إلى تشجيع ملوك بني الأحمر للشعراء الذين كانوا يقربونهم وذلك لأن الحكام أنفسهم يميلون إلى الأدب والفنون شأنهم في ذلك شأنُ سائر ملوك الطوائف، إذ كان بعضهم يقرض الشعر مثل: **محمد الثاني** (ت 701هـ) **ومحمد الثالث** (ت708هـ)، **ويوسف الأول**؛ الذي ظهر في عهده طائفة من الشعراء والأدباء أمثال: **ابن الجياب وابن الخطيب، وابن زمرك، وأبو الحسن النباهي وابن ليون التجيبي**، وكان السلطان يوسف الملقب بأبي الحجاج، قد أنشأ مدرسة عُرِفت باسم **المدرسة العلمية أو المدرسة النصرية** ، وكانت من مفاخر غرناطة،حيث دُرِسَتْ فيها

*اللُّجَيْنُ : الفضة .

[1]- ابن الخطيب، اللمحة البدرية ، ص 66.

[2]- ينظر: محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ص 461.

مختلف أنواع العلوم، وكان يؤُمُّها-يقصدها- الطلاب والمدرسون من المغرب، وقد نظم ابن الجياب أبياتا رائعة في هذه المدرسة كُتِبَتْ على بابها :[1]

يَاطَالِـبَ العِلْـمِ هَـذَا بَابُـهُ فُتِحَـا *** فَادْخُلْ تُشَاهِدْ سَنَاهُ لاَحَ شَمْسَ ضُحَى
واشْكُرْ مُجِيـرَكَ مِـنْ حِـلٍّ وَمُرْتَحِـلِ *** إذْ قَـرَّبَ اللهُ مِـنْ مَرْمَـاكَ مَـا نَزَحَـا
وشَـرَّفَتْ حَضْـرَةَ الإِسْـلاَمِ مَدْرَسـةٌ *** بِهَـا سَـبِيلُ الهُـدَى والعِلْـمِ قَـدْ وضَـحَا
أعمـــالُ "يُوسُـــفَ" مَوْلاَنَـــا ونِيَّتُـــهُ *** قَـدْ طَـرَّزَتْ صُـحُفًا ميزَانُهَـا رَجَحَـا[2]

وكانت تدرس فيها اللغة والأدب، واعتمدت على كتاب سيبويه، وكتاب الأغاني وآثار الجاحظ ومقامات الهمذاني، والحريري، وديوان الحماسة، والمتنبي وغيرها من الكتب الأدبية...[3]

« وكان ابن الخطيب قد أشاد بهذه المدرسة بأبيات قد كتبت على جدرانها وهي:

ألاَ هَكَذَا تُبْنَى المَدَارِسُ للعِلْمِ *** وتبْقَى عُهودُ المجْدِ ثابتَةَ الرَّسِم
ويُقْصَدُ وجْهَ اللهِ بالعمَلِ الرِّضَى *** وتُجْنَى ثِمَارُ العِزِّ منْ شَجَرِ العَزْمِ
فيَا ظَاعِنًا للعِلْمِ يَطْلُبُ رحْلَةً *** كُفِيتَ اعْتِرَاضَ البِيدِ أوْ لُجَجَ اليَمِّ
بِبَابِي حُطَّ الرَّحْلَ لا تَنْوِ وِجْهَةً *** فَقَدْ فُزْتَ فِي حَالِ الإِقَامَةِ بالغُنْمِ»[4]

وبالإضافة إلى المدارس التي أنشأها حكام غرناطة بالأندلس، كانت تُعقَد مجالس علمية، وندوات أدبية، ومحافل جدلية، والتي شهدت نماءً وازدهارًا في قصور السَّلاطين وكبراء دولة بني نصر بغرناطة، وبني مرين بفاس، وفي بيوتات مثقفي العصر في تينك العاصمتين من الدعائم الأصيلة في انتعاش حركة العلوم والآداب، واتساع دائرة التأليف

[1]-ينظر: عمر ابراهيم توفيق، الوافي في تاريخ الأدب العربي في الأندلس، دار غيداء، عمان، الأردن، ط1، 2012، ص 223.

[2] – المقري، نفح الطيب، ج 5، ص 457.

[3]-ينظر: عمر ابراهيم توفيق، الوافي في تاريخ الأدب العربي في الأندلس ص 224.

[4]– أحمد بن محمد المقري التلمساني، أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق: محمد السقا وآخرون، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، مصر،(د ط)،1939، ج 1، ص 272.

والتصنيف في تلك الفترة[1]،ولعلنا نذكر بعض المؤلفات التي وصلت إلينا من عصر بني الأحمر على سبيل المثال لا الحَصْرِ، وإلا لو سردنا تواليف هذه الفترة لِاحتاج الأمر منَّا إلى مجلدات، وأوّل مايشدُّ انتباه الدارس في هذا العصر الكتب الآتية : **الإحاطة في أخبار غرناطة**، وكتاب **الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه من شعراء المائة الثامنة** ، أما دواوين الشعر مثل **ديوان الصيب والجهام لابن الخطيب وديوان أبي حيان الغرناطي، وديوان ابن الجياب**، و**ديوان ابن جابر**، و**ديوان الغساني، وابن خاتمة الأنصاري، وابن فركون، وديوان يوسف الثالث، وديوان ابن زمرك (...) وغيرها من الدواوين.**

ومن الظواهر اللافتة للنظر في هذا العصر انتشار النقوش الشعرية على جدران القُصور، مثل **قصر الحمراء** ،**وجنة العَريف** ونوافذها، ومعظم هذه الأشعار للسان الدين ابن الخطيب، وابن زمرك، وابن الجياب، والملك يوسف الثالث، كما نقشت أشعار أخرى على الأحواض والجِرَارُ الخَزَفية وشواهد القبور وغيرها.[2]

وكان الشعراء في هذه الفترة يرافقون الجيوش في الحملات العسكرية،و يشاركون أحيانا في الدِّفاع عن غرناطة وثغورها ضد الهجمات الإسبانية.[3]

وقد تنوعت أغراض الشعر في هذا العصر تبعا لتطورات الواقع السياسي والاجتماعي، فشاع شعر رثاء المدن ،ووصف المعارك، وكَثُرَ شعر الأعياد والمناسبات والمدائح النبوية، وكثر أيضا شعر الاستنجاد ، وغلب طابع الاستغاثة واستنهاض همم ملوك المغرب وتونس للمؤازرة في الدفاع عن مجد العرب المهدد بالضياع في الأندلس، فيستجاب لصريخ هذا الشعر حينا، وتصم الآذان عنه أحيانا.

---

[1]– ينظر: محمد مسعود جبران، فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب (المضامين والخصائص الأسلوبية)، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، ط 1، 2004، ص 39و40.

[2]– ينظر: صلاح جرار، قراءات في الشعر الأندلسي، ص 49.

[3] –ينظر: المرجع نفسه، ص 50.

ومن الفنون الشعرية التي استحدثها الأندلسيون من قبل، ثم بلغت كمال نضجها في عصر بني الأحمر فن الموشحات والأزجال.[1]

ومما تجدر الإشارة إليه هو أن الشعر لم يبق داخل القصور والأندية الخاصة ليسلِّي ويطرب ممثلي الطبقة الراقية، وإنما تخطَّى الجدران والحواجز ليصل إلى العامة، وينتشر في الطبقات الاجتماعية عامةً، فلم يكن من الضَّروري أن يتمتَّع الإنسان بثقافة واسعة ليسْتَحْسِنَ الشعر ويتذوقه، ويرجع ذلك إلى الانتشار الهائل للموسيقى التي لعبت دورا هاما في جعل الشعر متداولا بين الناس يتغنى به الجميع، ومما يؤكد ذلك هو أن ابن الخطيب قد لاحظ بنفسه أن الشعر كان يُسْمَعُ حتَّى في دكاكين غرناطة.[2]

ومنه يمكننا القول إنّه وعلى الرغم من عمق المأساة، والمعاناة من الفتن الداخلية والحروب الخارجية، استطاع الغرناطيون أن يحققوا معادلة الحضارة الإنسانية شكلا ومضمونا، وما تزال آثار هذه الحضارة الشامخة واضحة وعميقة في الفكر الإنساني لخَّصَتْ تجاربها الدولة النَّصْرية، فرفعت لواءها عاليا لتُقَدِّمَهَا للإنسانيةِ كَنْزًا ثَمينًا.

ثانيا – حياة ابن الخطيب الأندلسي:

- **مولده:**

«هو محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد السلماني قرطبي الأصل ثم نزل سَلَفُهُ طليطلة ثم لوشة ثم غرناطة، يكنى أبا عبد الله، ويلقب لسان الدين ولد في الخامس والعشرين من رجب سنة713هـ بلوشة»[3]، وهي إحدى المدن التابعة لغرناطة ، وكان لقب الخطيب ورثه من جدِّه سعيد، الذي تولَّى الخطابة في منطقة لوشة

[1] –ينظر:عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان،(د ت)،(د ط) ص 129.

[2] – ينظر: حمدان حجاجي، حياة وآثار ابن زمرك (شاعر الحمراء)، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر (د ط)، 1989، ص19.

[3] –أحمد بن علي بن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دار الجيل، بيروت، لبنان، (د ط)، 1993، ج 3 ص469.

وهكذا انتقل اللقب إلى عائلة لسان الدين.[1] ويذكر المقريُّ عن أخبار ابن الخطيب ونشأته فيقول «إن بيتهم يعرف ببني الوزير، ثم في الحديث ببني الخطيب وسعيد جده الأعلى أوَّلُ من تلقَّبَ بالخطيب،وكان من أهل العلم والدين والخير، وله خلال حميدة، من خط وتلاوة، وفقه، وحساب وأدب، خَيِّرا، صَدْرًا، توفي عام ثلاثة وثمانون وستة مئة،أمّا أبوه عبد الله من أهل العلم والأدب والطب، وقد قرأ على أبي الحسن البلوطي أبي جعفر بن الوزير وغيرها، وأجازه طائفة من أهل المشرق، وتوفي بطريف عام 741هـ شهيدا يوم الاثنين السامع من جماده الأولى مفقودا ثابت الجأش شكر الله فعله، قال ابنه لسان الدين صاحب الترجمة: أنشدت والدي أبياتا من شعري فسُرَّ وتهلل وارتجل رحمه الله:

الطِّـــــبُّ والشِّـــــعْرُ والكتابـــــة *** ســـــماتُنَا فِـــــي بَنِـــــي النَّجَابَـــــة.
هـــــى ثـــــلاث مبلغـــــات *** مـــــراتبا بعضـــــها الحجابـــــة».[2]

- **نشأته وتكوينه:**

لقد نعم ابن الخطيب في مرحلة طفولته وصباه وشبابه، بالتقلب في هذا المهاد المفعمة بالنعمة، وتفتح وجدانه في هذا البيت الموصول بالعرفان والتقاليد المعتبرة، كما تقلّب في هذه المدينة الجميلة (لوشة) الحافلة بمظاهر الجمال الطبيعي المُتَجَلِّي في الحقول الفيحاء، والبساتين الغنّاء، وسعد بعد ذلك برفاهية العيش في رياض غرناطة، وربوعها السامية، حضرة الدولة النّصرية، التي تغنى بمفاتنها شعرا و نثرا، وخلَّدَ في آثاره الباقية مآثرها.

حظي ابن الخطيب بمكانة سامية بفضل الرعاية التامة من قِبل أسرته، هذه الرعاية التي كان لها الأثر البارز في تكوينه العلمي والعملي، وفي توجهه النفسي والسلوكي وطموحه المتنوِّع، ومن مظاهر الحظوة التي لقيها في صغره أنْ وفَّر له والده قماطر الكتب الحافلة، وخطى به الخطوة الأولى على درب العلم،فبدأ بحفظ القرآن وتجويده على

[1] – ينظر: فاضل فتحي محمد والي، الفتن والنكبات وأثرها في الشعر الأندلسي، دار الأندلس، السعودية، ط1، 1996 ص375.

[2] – المقري، أزهار الرياض ،ص186– 187.

شيخه أبي عبد الله بن عبد الولي العواد، ثم قرأ على الشيخ أبا الحسن القيطاجي[1]، «وقرأ على الخطيب أبي القاسم بن جزّي، ولازم قراءة العربية والفقه والتفسير على الشيخ الإمام أبي عبد الله بن الفخار إلبيري، شيخ النَّحويين في زمانه،ومن شيوخه الذي تأدب عليهمأبي الحسن الجيَّاب؛ الذي تشرَّبَ منه طرائقه الأدبية في المنثور والمنظوم»[2]،كما أخذ الطب وتعاليمه على يد الحكيم يحي بن هذيل الذي اختص به ابن الخطيب، وتعلم منه كذلك الفلسفة.[3]

و كذلك ممن تلقى عنهم ابن الخطيب العلمَ، قاضي الجماعة في غرناطة أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد السبتي المتوفى سنة(761هـ)، وكان حجة في العربية والبيان و الأدب وإماما في الفقه والحديث، ومن أشياخه أيضا الإمام الرحال شمس الدين ابو عبد الله محمد بن جابر الوادي آشي المولود بتونس والمتوفى بها سنة (779هـ)، وكان شيخا بارعا في علوم الحديث والنحو واللغة، كما كان بارعا في الشعر(...) إلى جانب عددٍ كبير من أرباب العلم وأساطينه في غرناطة وغيرها.[4]

- **مؤلفات بن الخطيب:**

خلف ابن الخطيب كما هائلا من التَّواليف، على الرغم من كثرة مشاغله، وتشعب اهتماماته السياسية والاجتماعية، إلا أنه ترك لنا آثارا عظيما تنمُّ عن قدر مؤلفها ومدى ثقافته وسِعَةِ اطلاعه، ونذكر بعض مؤلفاته:

«الإحاطة في أخبار غرناطة"، "السحر والشعر"، "عمل من طب لمن حب" "ريحانه الكتاب"، "الكتبية الكامنة في مَنْ لقيناه بالأندلس من شعراء المئة الثامنة" "اللمحة البدرية

---

[1] – ينظر: مسعود جبران، فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين، ص43و44.

[2] – ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج3، ص469.

[3] – ينظر: ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر بأنباء العمر، تحقيق: حسن حبشي، لجنة إحياء الثرات الإسلامي القاهرة، مصر، ط16، 1998، ج1، ص91.

[4]– ينظر: فاضل فتحي محمد والي، الفتن والنكبات وأثرها في الشعر الأندلسي، ص 375–376.

في الدولة النصرية"، "نُفَاضة الجراب"، "بستان الدول"، "تخليص الذهب في اختيار عيون الكتب"، "طُرْفة العصر في دولة بني نصر"، "روضة التَّعريف بالحب الشريف"، "اليوسفي في الطب"...وغيرها من التّواليف التي فُقدت.»[1]

مكانته بين العلماء:

حَظِيَ ابن الخطيب بمكانةٍ مرموقةٍ ومنزلةٍ عاليةٍ طيلة حياته، كيف لا وهو الشاعر المُفَلَّقُ والعَالِمُ النِّحْرِيرُ، ورغم جوِّ التنافس الحاد الذي كان سائدا بين العلماء والأدباء، حيث وصل في مناسبات كثيرة إلى درجة الخصومة والصراع، إلاّ أنَّ ذلك لم يحطَّ من مكانة ابن الخطيب فنرى المقري يؤلف كتابه الشهير (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكرِ وزيرها ابن الخطيب) وعنه يقول :«هو الوزير الشَّهيرُ الكبير لسان الدين الطائرُ الصِّيتِ في المغرب والمشرق المزري، عَرْف الثَّناء عليه بالعنبر والعبير، المَثَلُ المضروب في الكتابة والشعر والطب، ومعرفة العلوم مع اختلاف أنواعها ومصنفاته تخبر عن ذلك، ولا ينبئك مثل خبير، علم الرؤساء والأعلام، الوزير الشهير الذي خدمته السيوف والأقلام، وغني بمشهور ذكره عن مسطور التعريف والاعلام واعترفَ له بالفضل أصحابُ العقول الراجحة والأحلام.»[2] ويضيف المقرى نقلا عن ابن الأحمر « هو شاعر الدنيا، وعلم المفرد و الثُّنَيَا وكاتب الأرض، إلى يوم العرض، لا يُدَافَعُ مدحه في الكتب،ولا يجنح فيه إلى العتب...»[3]، أما العلاَّمة ابن خلدون فيصفه في قوله« ذاكرتُ يومًا صاحبنا أبي عبدالله بن الخطيب وزير الملك بالأندلس من بني الأحمر، وكان الصَّدر المُقَدَّم في الشعر والكتابة.»[4]

---

[1]– أحمد بن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور، الرباط، المغرب، (د ط) 1973، ص308،

[2] – المقري، نفح الطيب، ج5، ص7.

[3] – المقري، أزهار الرياض، ج1، ص191.

[4] – ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، مكتبة الهداية، دمشق، سوريا،ط1، 2004،ج2 ،ص407.

- **اتصالُهُ بالملوك:**

لما استُشهِدَ والد لسان الدين في معركة طريف سنة (741هـ) وكان كاتبا في الديوان السلطاني، حل ابن الخطيب مكان والده في الديوان لدى السلطان أبي الحجاج يوسف بن أبي الوليد ابن نصر ابن الأحمر، فمدحه و اقترب منه و اسكتبته من تحت يد أبي الحسن ابن الجياب، إلى أن مات أبو الحسن بالطاعون الجارف سنة(749هـ)[1] «فاستقل بكتابة السر و أضاف إليه رسوم الوزارة، و استعمله في السفارة إلى الملوك و استنابه في جميع ما يملكه، فلما قتل ابن الحجاج سنة (755هـ) ،وقام ابنه محمد فاستمر ابن الخطيب على وزارته، واستكتب معه غيره ثم أرسله إلى أبي عنان المريني بفاس ليستنجده»[2]، وفي هذا يقول لسان الدين: « وقفت أمام سلطان المغرب "أبي عنان" رحمه الله عليه فأنشدته مادحا بها في المحفل المشهود قبل أن ألقي له مضمون الرسالة التي تَحَمَّلْتُهَا من سلطاني بالأندلس:

خليفـــــةَ اللهِ ســـــاعدَ القَـــــدَرُ *** عـلاك مـا لاح فـي الـدّجى قمـر.
ودافعـــتْ عَنْـــكَ كَـــفٌّ قُدْرَتِـــهِ *** مـا لَـيْسَ يَسْـتَطِيعُ دَفْعَـهُ البَشَـرُ.
لـــيس لنـــا ملجـــأٌ نُؤَمِّلُـــهُ *** ســواك أنْـــتَ التِّمْثَـــالُ والـــوزرُ.
وجْهُـكَ فِـي النَّائِبَـاتِ بَـدْرٌ دُجَـى *** لنَـا وفِـي المحَـلِّ كَفُّـكَ المَطَـرُ.
والنَّـــاسُ طُـــرًّا بِـــأَرْضِ أنْـــدَلُسِ *** لَـــوْلاَكَ مـــا أوْطَنُـــوا ولا عَمَـــرُوا.
قَـــــدْ أهمَّـــــتْهُمْ نُفُوسُـــــهُمُ *** فوجَّهُـــونِي إلَيْـــكَ و انْتَظَـــرُوا.[3]

«فاهتزَّ السلطان لهذه الأبيات وأذِنَ له في الجلوس، وقال له قبل أن يجلس: ما ترجعْ إليهم إلا بجميع عطائهم(...) و ردهم بجميع ما طلبوه، وعن هذه الحادثة قيل: لم يسمع بسفير قضى سفارته قبل أن يسلّم على السلطان إلاّ هذا...»[4]

---

[1] – ينظر: محمد رضوان الداية، في الأدب الأندلسي، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 2000، ص 367و368.

[2]– محمد بن علي الشوكاني، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، مصر، (د ت ط)، ج2، ص191.

[4]–لسان الدين بن الخطيب، الديوان، تحقيق: محمد مفتاح، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 1989 ج 1، ص 403–404.

[1]– عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج 7، ص 442.

ولما خُلِعَ السُّلطان محمد وتغلب أخوه إسماعيل على السلطة قَبَضَ على لسان الدين بن الخطيب، بعد أن كان أمّنَهُ فأستأصل نعمته، ثم تخلص منها نكبة مصحفية* وسُجِن و استمر مسجونا إلى أن وَرَدَتْ شفاعةُ أبي سالمٍ ابن أبي عنان فيه، وجعل خلاصَهُ شرطا في مسالمة الدَّولة وكذلك خلاصُ السلطان محمد بن أبي الحجاج من السجن، فَخُلِّصَا وانتقلا إلى سلطان المغرب بفاس فأكرمهما حتى عاد السلطان محمد المخلوع إلى سلطته، و نادى لابن الخطيب ليرجع إلى سالف عهده في الوزارة، فأكرمه السلطان وبالغ في إكرامه، ولم يزلْ ابن الخطيب في كنف سلطانه حتى بلغت به الوشايات وكثر حساده، فاستشعر في آخر الأمر أنهم سعوا به إلى السلطان، فأخذ في التَّحَيُّلِ في الخلاص.[1]

* النكبة المصحفية: نسبة إلى المصحفي جعفر بن عثمان الحاجب، ويشير إلى نكبته على يد ابن أبي عامر المنصور، التي انتهت بسجنه في المطبق ثم موته.(ينظر : عبد الواحد المراكشي ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب،تحقيق: محمد العريان، دار بهاء الدين، قسنطينة، الجزائر ،ط1، 2011، ص 77).

[2]- ينظر: محمد بن علي الشوكاني، البدر الطالع، ج 2، ص192.

- **نكبة ابن الخطيب "القاصمة":**

لما كثر حُسَّاد ابن الخطيب ومناوئيه، وأوغروا صدر السلطان عليه، ما كان على ابن الخطيب إلا أن ينجو بنفسه، فراسل "أبا سالم" سلطان مدينة فاس بالمغرب باللحاق به، فخرج ابن الخطيب مُظْهِرًا أنَّه يريد تفقد الثغور الغربية، فلم يزل حتى حاذى جبل الفتح، فركب البحر إلى "سبته" ودخل مدينة فاس سنة (773هـ)،فتلقَّاه أبو سالم وبالغ في إكرامه، وأجرى له الرواتب، فاشترى بها ضياعا وبساتين، فبلغ ذلك أعداءَه بالأندلس فسعوا به عند السلطان محمد الغني بالله، حتى أذن لهم في الدَّعوى عليه بمجلس الحاكم[1]، وقد كان من جملة الحاقدين والحاسدين على ابن الخطيب، تلميذه ابن زمرك، والقاضي ابن الحسن النَّباهي صديقُ الأمس القريب،السَّاعي في السابق الى مرضاة ابن الخطيب، والذي كمْ قَبَّلَ يده تقّربا وتحبّبا، فانْطَبق عليهم قول القائل:أحبب صديقك هونا ما، فربَّما أصبح يوما عدوك، وأبغض عدوك هونا ما، فربما أصبح يوما صديقك[2] فقد شاعت كلمات قد نسبت إلى الزندقة أحصوها عليه، ونسبوها إليه، وقالوا إنه صار بتصوره الفلسفي الذي أودع نظرياته بكتابه" روضة التعريف بالحب الشريف" من القائلين بالوحدة والحلول والخارجين عن الشرع الإسلامي الحنيف، فأرسلوا إلى سلطان المغرب أبي سالم لكي يسلمهم لسان الدين ابن الخطيب، لكنه امتنع وقال:«هلاّ ذلك أقمتم عليه وهو عندكم فأما ما دام عندي فلا يوصل إليه».[3]

ولكن تنفذ مشيئة الله في لسان الدين ابن الخطيب، فقد توفي السلطان عبد العزيز المريني سلطان المغرب وحامي ابن الخطيب في ربيع الثاني سنة 774هـ، و آل أمر دولته إلى ابنه أبي زيان السعيد ابن أبي فارس العزيز بن علي المريني، وكان غلاما صغير السن، فتآمر ابن الأحمر الغني بالله سلطان غرناطة عليه، وأشعل الفتنة بالمغرب

---

[1]– ينظر: المصدر السابق، ج 2، ص19

[2]– ينظر: فاضل فتحي، الفتن والنكبات، ص 379

[3] – ابن الخطيب ، اللمحة البدرية ، 26

التي لم تهدأ إلا بخلع السلطان سعيد بن أبي فارس، وتوليه خليفة من صنائعهم وهو أبو العباس احمد بن إبراهيم بن سالم المريني، الذي قبل شروط السلطان الأندلسي وهي تسليم أبناء الملوك ومنهم السلطان المخلوع، وكذا محاكمة ابن الخطيب، وتمت لهم الأمور وقبضوا على لسان الدين ابن الخطيب، وصادروا أملاكه وضياعه، وسجن عام(776هـ) فبعث سلطان الأندلس الغني بالله كاتبه ابن زمرك، والقاضي أبا الحسن النّباهي إلى المغرب، وعقدا لابن الخطيب محاكمة صورية على ملأ من الناس وجَّهُوا له تُهَمًا كثيرة ونكّلوا به وعذبوه أمام الناظرين[1]،« ثم نُقل إلى محبسه و تشاوروا في قتله، و أفتى بعض الفقهاء فيه، ودسَّ له وزير أبي العباس سليمان بن داوود بعض الرِّعَاعِ فطَرَقُوا سجنه ليلا فقتلوه خنْقًا، ثم أخرجوه فَدُفِن في مقبرة باب المحروق، ثم أصبح الناس وقد وجدوا جثته على حافة قبره وقد جمعت له أعواد، و أضرمت النار عليه، فاحترق شعره، واسود جلده فأعيد إلى حفرته، وكان ذلك انتهاء محنته».[2]

و كان ابن الخطيب عفا الله عنه، أيام امتحانه، بالسجن يتوقع مصيبة الموت فتجهش هواتفه بالشعر، يبكي نفسَهُ، ومما قال في ذلك:

بَعُـــدْنَا وإنْ جَاوَرَتْنـــاَ البُيـــوتْ *** وجِئْنَـــا بـــوعظٍ ونَحْـــنُ صَـــمُوتْ.
وأنفاسُـــــنا سَكَنَـــــتْ دُفْعَـــــةً *** كجَهْـــر الصَّـــلاة تَـــلاَهُ القُنُـــوتْ
وكنـــا عظامـــا فصـــرنا عظامـــا *** وكنـــا نقـــوت فهـــا نحـــن قُـــوت
وكنـــا شـــموسَ ســـماءِ العُـــلاَ *** غَـــرَبْنَ فنَاَحـــتْ علينـــا السَّـــمُوتْ
فكـــم خَـــذَلَتْ ذا الحُسَـــامَ الظُبَـــا *** وذُو البَخْـــتِ كـــم جدَلَتْـــهُ البُخُـــوت
وكـــم سِـــيقَ للقَبْـــر فـــي خِرْقَـــةٍ *** فَتَـــىً مُلِئَـــتْ مِـــنْ كَسَـــاهُ التُّخُـــوتْ
فقُـــلْ للعِـــدَا ذَهَـــبَ ابـــن الخطيـــب *** وفَـــاتَ ومَـــنْ ذا الـــذِي لا يَفُـــوتْ.
و مَـــنْ كَـــانَ يَفْـــرَحُ مِـــنْهُمْ لَـــهُ *** فقُـــلْ يَفْـــرَحُ اليَـــوْمَ مـــنْ لاَ يَمُـــوتْ[3]

هكذا كانت النهاية الفاجعة لابن الخطيب فرحمه الله رحمة واسعة .

---

[1]– ينظر: فاضل فتحي، الفتن والنكبات، ص 380.

[2]– المقري، أزهار الرياض، ج1، ص 230و231،

[3] – ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: عبد القادر ومحمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط1، 1992، مجلد8، ص 425و 426،

الفصل الأول

الفصل الأول : هيكل القصيـدة :

1- القصيدة المركبة :

- المطلع .
- المقدِّمة

أ- المقدِّمة الطللية .

ب-المقدِّمة الغزلية .

ج- المقدِّمة الحماسية .

- التّخلُّص .
- الموضوع الرئيسي.
- خاتمة القصيدة .

2- القصيدة البسيطة .

1-القصيدة المركبة:

إنّ المقصود بالقصيدة المركبّة في النقد العربي، هي تلك التي تشتمل على غرضين والتي تتكون من أقسام عبر عنها النّقاد بـ: المطلع، المقدمة الرحلة،التخلص،الخاتمة، يقول حازم قرطاجني في هذا الشأن « والقصائد منها بسيطة الأغراض ومنها مركبة، والبسيطة مثل القصائد التي تكون مدحًا صرفًا، أو رثاء صَرْفًا،والمركبة التي يشتمل الكلام على غرضين مثل أنْ تكون مشتملة على نسيبٍ ومدح،وهذا أشدّ موافقة للنفوس الصحيحة الأذواق.»[1]

وبالرجوع إلى حديث ابن قتيبة في كتابه "الشعروالشعراء" نجده يشير إلى هذا النوع دون أن يسميها بالتسمية المتفق عليها الآن القصيدة المركبة، وذلك معرض حديثه على بناء القصيدة العربية القديمة. [2]

ولعل المتتبع لقصائد ابن الخطيب وخاصة المدحية فيها، يجده قد بناها على شكل قصائد مركبة، كأن يستهل قصائده المدحية بالغزل وهو يشير إلى هذا بقوله:

فكأنّمَـــا لَيْلِـــي نَسِـــيبُ قَصِـــيدَتِي *** والصُّـــبْحُ فِيـــهِ تَخَلُّـــصٌ لِمَـــدِيحِي[3].

وهو في هذا يسير على السنة المتبعة لدى معظم الشعراء السابقين له .

- **المطلع:**

عني النّقاد الأقدمون عناية خاصة بمطالع المقدمات، ذلك لأنّ« المطلع من دلائل البيان ولأنّ حُسن الافتتاح داعيةُ الانشراح، ومطيَّة النَّجاح، ولطافة الخروج الى المديح سببُ ارتياح

---

[1]– حازم القرطاجني، منهاج البلغاء و سراج الأدباء، تحقيق : محمد لحبيب بن الخوجة، دار الكتب الشرقية ، تونس (د ت) 1906، ص 303

[2] – ينظر: عبد الله ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط2 1967، ج1، ص74.

[3]– ابن الخطيب ، الديوان ، ج1، ص 34

الممدوح ،وخاتمة الكلام أبْقَى في السّمع، وألصق بالنّفس إذ أنّ الشعر قفلٌ أوّله مِفْتَاحُه.»[1] وقد كانوا يقولون «أحسنوا معاشر الكُتّاب الابتداءات فإنَّهنَّ دلائل البيان»[2]، ومن المفيد أنّ بدايات الكلام أمرٌ حُثَّ عليه، ونُصْح بالاهتمام به أيَّما اهتمام ، لأنّه هو الذي يجلب الانتباه ، ويشدُّ السامع ويدفعه الى متابعة الاستماع ،ولكي يكون المطلع موفقًا حدد النُّقاد بعض العيوب التي ينبغي الابتعاد عنها و تجنبها ومن ذلك:

- التّعقيد: لأنّه أول العيّ ودليل الفهّة*. [3]
- عدم إغْفَال أحوال المخاطبين لمعرفة ما يكرهون سماعه ، « فيتجنب ذِكْرُه لذلك عاب النقاد مطلع جرير حينما دخل على عبد الملك بن مروان فقال:

أَتَصْحُو أمْ فُؤَادُكَ غَيْرُ صَاحِ *** عَشِيَّةَ هَمَّ صَحْبُكَ بِالرَّوَاحِ.» [4]

كما عابوا على المتنبي مطلع قصيدته في أول لقائه بكافور الإخشيدي بقوله:

كفى بك داءً أنْ تَرَى المَوْتَ شَافِيَا *** وحسبُ المَنَايَا أنْ يَكُنَّ أمَانِيَا. [5]

و استحسن النُّقاد بعض الابتداءات من ذلك قول النابغة:

كِليني لِهَمٍّ يا أميمةَ نَاصِبِ *** وليلِ أعَانِيهِ بَطِيءِ الكَوَاكِبِ.

---

[1]– أبو علي الحسن ابن رشيق القيرواني ،العمدة في محاسن الشعروآدابه ونقده تحقيق: محمّد محي الدين عبد الحميد،دار الجيل سوريا، ط1981،5،ج1، ص 218 .

[2]– أبو هلال العسكري ، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق على محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل هيثم، دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1952، ص 431.

* الفَهَّةُ والفَهاهةُ : مرادف لكلمة العَيّ والسقطة في الكلام (ينظر: ابن منظورمحمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط3 ، 1414 هـ ،ج13 ، ص525 .)

[3] –ينظر: ابن رشيق، العمدة، ج 1 ، ص219.

[4]– المصدر نفسه : ج1 ،ص 222.

[5] – المتنبي أبي الطيب ،الديوان، شرح أبو البقاء العكبري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، دار المعرفة، بيروت، لبنان، (د ت ط)، ج4، ص281.

والبيت هو مطلع لقصيدة يمدح بها عمرو بن الحارث الأصغر الأعرج، وعن البيت قال ابن قتيبة «لم يبتدئ أحد من المتقدمين بأحسن منه ولا أغرب»[1]

واستحسن النُّقاد أيضا ابتداء قول أوس بن مجر في الرثاء:

أيَّتُهَـــا الـــنَّفسُ أجْمِلِـــي جَزَعًـــا *** إنَّ الـــذي تَحْـــذَرينَ قـــدْ وَقَعَـــا. [2]

كما استحسنوا مطالع جاءت موافق لشروط النُّقاد، من الفخامة، والروعة والبعد عن التَّعقيد وسلامة التركيب، ومن ذلك مطلع سنبية أبي تمام:

الســيف أصــدقُ أنْبَــاءً مــنَ الكُتُــبِ *** فــى حِـدِّهِ الحَـدُّ بـينَ الجِـدِّ واللّعِـبِ.[3]

وأيضًا مطلع المتنبي النادر المتفرد باختراعه:

الـــرأيُ قبْـــلَ شـــجَاعَةِ الشُّـــجْعَانِ *** هِـــيَ أوَّلٌ وهـــيَ المَحَـــلُّ الثَّـــانِي[4]

وهناك بعض الدارسين من ربط هذه المطالع بدلالات نفسيّة، فالشاعر الذي يمدح يكون هدفه الواضح كسب رضا الممدوح وما يترتب على القصيدة الرضا، والمطلع داخل في هذا الاطار، بمعنى أنَّ الشاعر يهدف إلى فتح شهيّة الممدوح لسماع القصيدة والانفعال بها، «ونرى هذا الانفعالَ جليًّا حينما يمدح لسان الدين ابن الخطيب ، سلطان المغرب بأبيات اهتزَّ لها، وأكرمه بقوله أيَّما اكرامٍ، وممَّا قاله :

خليفـــــةَ اللهِ ســـــاعدَ القَـــــدَرُ *** عُـــلاَكَ مـــا لاحَ فـــي الّـــدُّجَى قَمَـــرُ
ودافعـــتْ عنـــكَ كـــفٌ قُدْرَتِـــهِ *** مـــا لـــيس يَسْـــتَطِيعُ دَفْعَـــهُ البَشَـــرُ.» [5]

---

[1] – ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج1، ص66.

[2] – أوس بن حجر، الديوان، الخطيب التبريزي ، تحقيق محمد يوسف نجم، دار بيروت، لبنان (د،ط) 1980، ص53.

[3] – حبيب أبي تمام، الديوان ، تقديم راجي الأسمر، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1994، ج1، ص32.

[4] - المتنبي ، الديوان ، ج4، ص 174

[5] – المقري ، أزهار الرياض ، ج1، ص 206 .

وكان ابن الخطيب يُولِي مطالع قَصَائِدِهِ عنايةً خاصة، حيث يختار ألفاظه من السَّهل الأنيق وينّوع صيَغَهُ بين الانشاء والخبر، حتى يستمتع المتلقي بها وينتظر ما بعدها في شغف واستزادة، ومن ذلك قصيدة له في أمير المسلمين أبي الحجّاج استهلها بقوله:

يحيِّيك بالرَّيحَان والرَوْح مِنْ قَبْر *** رضَا اللهِ عمَّن حَلَّ فيكَ مدَى الدَّهْر[1]

وكان ابن الخطيب ينحو منحى الشعراء المتقدمين في بناء قصائده، حيث يبدأ بالغزل فالرحلة فالمديح، ومهما يكن من أمر فقد كان يتنقل بين طرائق متعددة في قصائده المدحية شأن الشعراء المتأخرين، ومن أمثال ذلك يقول:

حيِّ رَبوعَ الحَيِّ مِنْ نُعْمَان *** جُودُ الحَيَا وسَوَاجِمُ الأجْفَان.
دارٌ عَهِدْتُ بِهَا الشبيبة دوحةً *** طيبُ الحياةِ بِهَا جَنْيٌ دَانِي[2]

ثم ينتقل بعدها ليذكر الرحلة فيقول:

أَلِفَ التَرحُّلَ لاَ يُقِيمُ بِبَلْدَةٍ *** إلاَّ مُقَامَ العَذْلِ فِي الآذَانِ.
أيَّ البِلاَدِ أَوُمُّ أَمْ أَيَّ الوَرَى *** أبْغِي فَأَصْرِفُ نَحْوَ ذَاكَ عِنَانِي.[3]

ثم يتخلّص ابن الخطيب من هذا كلّه إلى غرضه الرئيسي؛ وهو التهنئة بالعيد بعد أنْ ربط مقدمة القصيدة بالغرض الأساس الذي نظم من أجله القصيدة فيقول:

وبَابُ مَوْلاَنَا المُؤَيَّدِ "يُوسُفَ" *** مَا شِئْتَ مِنْ حُسْنَى ومِنْ إحْسَان.
وسَحَابُ جُودِ يَمِينِهِ لا يَنْثَنِي *** تَسْكابُها عَنْ وَابِلٍ هَتَّانِ*.[4]

وابن الخطيب كان ينّوع في مطالعه فنجد عنده المطالع الغزلية والطللية والخمرية وأيضًا الحكمية، هذه الأخيرة التي نجدها في الكثير من شعره ، وهو في ذلك متأثرٌ بشاعر

[1] – ابن الخطيب ، الديوان ، ج1، ص 398 .
[2] – المصدر نفسه : ج2، ص 575 .
[3] – المصدر نفسه : ج2،ص 576 .
* هتَّان :المطر المتتابع
[4] – المصدر نفسه : ج2،ص 576 .

الحكمة المتنبي، ومن أمثلة مطالعه في الحكمة قصيدةٌ نَظمها في مدح السّلطان الغني بالله لما فَصَلَ طالبًا حقَّهُ بالأندلس، حيث صدّرها بحكمه فيقول:

الحـــقُّ يَعْلُـــو والأباطُـــلُ تَسْـــفُلُ *** واللهُ عَـــنْ أَحْكَامِـــهِ لاَ يُسْـــأَلُ[1].

وهي قصيدة طويلة عَصْمَاء بَلغَتْ (197) بيتا قد أسماها بـ :"المَنْحُ الغَرِيب في الفَتْحِ القَرِيب"، وقد استلهم فيها من الموروث الديني والشعري أيَّما استلهام، ثم بعد ذلك يُحْسِن التَّخلص إلى غرضه الأساسي ألا وهو تهنئة السُّلطان بالفتح واستعادته ملكه بالأندلس فيقول:

أمُحَمَّـــدٌ والحَمْـــدُ مِنْـــكَ سَـــجِيَّةٌ *** بِحُلِيِّهَـــا بَـــيْنَ الـــوَرَى يُتَجَمَّـــلُ.
أمَّـــا سُـــعُودُكَ فَهْـــوَ دُونَ مُنَـــازِعٍ *** عَقْـــدٌ بأحْكَـــامِ القَضَـــاءِ مُسَـــجَّلُ.

ولـــكَ السَّـــجَايَا الغُـــرُّ والشِّـــيَمُ التِـــي *** بِغَرِيبِهَـــــا يتَمَثَّـــــلُ المُتَمَثِّـــــلُ[2]

وينقل المقري في كتابه الأزهار أنَّ ابن حجة في شرح بديعيته علّق على قصيدة ابن الخطيب ما نصُّه «وممّا يشعر بالتّهنئة والنصر على الأعداء، براعة الاستهلال للعلامة إمام المغرب، ذي الوزارتين لسان الدين بن الخطيب وهي:

الحـــقُّ يَعْلُـــو والأباطـــل تَسْـــفُلُ *** والله عـــنْ أحْكَامِـــهِ لا يُسْـــأل.

حتى إن السلطان لما سمع القصيدة أمر أنْ تُكتب على قصوره بالحمراء إعجابًا بها، وإنها إلى الآن لا تزل مكتوبة بتلك القصور التي استولى عليها العدُّو الكافر.»[3]

ومن أمثلة مطالعه الحسنة قوله في قصيدة يمدح بها السُّلطان المريني أبا سالم يقول:

"سـلا" هـل لـديها مـن مُخَبِـرةِ ذِكْـرُ؟ *** وهـل أعشـب الـوادي ونـمّ بـه الزَّهـر.
وهـل بـاكر الوسْـميُّ دارًا علـى اللِّـوى *** عَفَـتْ أيُّامهَـا إلاَّ التَّـوهُّم والـذكر.

[1] – ابن الخطيب ، الديوان ،ج 2 ، ص 495 .
[2] – المصدر نفسه : ج2،ص 496 .
[3] – المقري ، نفح الطيب، ج6، ص 478 .

بـلادي التـي عَاطَيْـتُ مشـمولةَ الهَـوَى *** بأكنافهـا، والعـيْشُ فَيْنَـانٌ مُخْضَـرُّ [1]

فالشاعر يذكر مدينة سلا إحدى حواضر المغرب، وفيها مقام السُّلطان بني مرين أبي سالم، ويتذكر بلاده غرناطة والأندلس، بعد أن اضطرته الظروف إلى تركها لا عن جفوة وملالة، ولكن لطارئ دهم، وانتزعهم من بلادهم ...

ومدخل الشَّاعر في قصيدته بارعٌ، لأنَّه يوحي بالحديث عن الدّيار على عادة العرب، وهو في الحقيقة مهَّدَ لموضوعه الذي هّيأه من الاستنجاد وطلب اللجوء والنصرة ثانيا.[2]

وابن الخطيب بالرغم من حالته النفسية في أواخر حياته ،وهو بالسجن لا يُهمِل مطلع القصيدة، وحرص على تلوينه بعناصر الموسيقى الداخلية والخارجية حيث يقول في مستهلّها:

بَعُـــدْنا وانْ جَاوَرَتْنَـــا البُيُـــوتْ *** وَجِئْنَـــا بِـــوَعْظٍ ونَحْـــنُ صُـــمُوتْ. [3]

ومن هنا يمكن القول إنَّ ابن الخطيب سار على نسق أسلافه ،من الشعراء مقتديًا بسننَهم في براعة الاستهلال، وجودة المطالع، فقد كان يُولِي عنايةً خاصة للمطالع والمقدمات، نظرًا لمَالَهَا منْ وقْعٍ وتأثيرٍ في النَّفس.

[1] – ابن الخطيب ، الديوان ج1، ص 414 .

[2] – ينظر رضوان الداية ، في الأدب الأندلسي ، ص 373 .

[3] – ابن الخطيب ، الديوان ج1، ص 185 .

- **المقدمة:**

لقد حظيت المقدمة بعنايةٍ خاصةٍ من قِبَل القدماء، سواءً أكانوا نُقَّادًا أم شعراءَ، حيث إنها تُعدُّ من الأركان الأساسية لبناء القصيدة ، ولم يكن ابن الخطيب يشُذُّ عن قاعدة الشُّعراء القدامى، الذين كانوا يهتمُّون بمقدمات قصائدهم، ومن اللافت للنَّظر أنَّ البيئة الأندلسية تختلف اختلافًا كبيرًا عن البيئة الجاهلية، حيث فرضت على الشّاعر أن يغيّر من عناصر المقدمة التقليدية، ليجعلها منسجمةً مع بيئة الأندلس، فالشاعر ابن بيئته.

ولأن المحيط الأندلسي يميل الى الخفَّة، وطلب كل مايُطْربُ النُّفوس، نرى شعراء الأندلس يَنْئَوْنَ عن بعض ماعُهِدَ من شعراء الجاهلية تجاه مقدمات قصائدهم .

فالشاعر الأندلسي لم يعد أسير المعاني التقليدية لدى الجاهليين ، فقد تخلّى عن وصف النؤي والاثافي والعرصات، ولا ينتقل إلى ممدوحه عبر رحلة ليصفها وصفًا مطولاً، وانَّما ينتقل انتقالاً سريعًا، بعد مقدمة تقليديةِ الفكرة، جديدةِ المعنى.[1]

فلم يكن وقوف شعراء الأندلس على الأطلال طويلاً كعادة الجاهليين، « بل وصفوها بالتبدّل والتغيير، واكتفوا بتحديد مواقعٍ باصطناع المرور على الأماكن، والوديان العربية القديمة ؛مشاكلة لعروبة الممدوح، كما لم يعرضوا لأثار تبدّل هذه الديّار بعد مغادرتها،لأنّهم عُنوا بوصف ما تثيره تلك الرسوم في نفوسهم، من ذكرياتِ ماضٍ سعيد تمتزج فيها اللذة بالألم، والمتعة بالحزن»[2] ،ولقد خاض النقاد سواءً من قديمٍ أو حديثٍ في قضية المقدمات وأفاضوا الكلام فيها ،ومن اللافت للنظر أنَّ هذه المقدمات لم تكن واحدة حتَّى في العصر

---

[1]- ينظر: فيروز الموسى، قصيدة المديح الأندلسية (دراسة تحليلية) منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق،سوريا،(د،ط) 2009، ص17.

[2]- أشرف محمود نجا، قصيدة المديح في الأندلس (قضاياها الموضوعية والفنية عصر ملوك الطوائف)، دار الوفاء،الاسكندرية ، مصر ،ط1 ، 2003 ، ص 25 .

الجاهلي، فإلى جانب المقدمات الغزلية والطللية ثَّمة مقدمات في الشيب والطيف، ووصف الطبيعة وغيرها ...[1]

وهناك من النُّقاد من قسَّم المقدمات إلى نوعين: مقدمات أساسية ويذكر لذلك المقدمة الطللية والمقدمة الغزلية، وأخرى ثانوية كبكاء الشيب ووصف الطبيعة.[2]

- **المقدمة الطللية:**

لقد حافظ شعراء الأندلس في بناء قصائدهم على النمط التقليدي للمقدمة الطّللية على الرغم مما أضافته البيئة الأندلسية المتحضرة من لمسات جديدة، فالشاعر الأندلسي لم يُقلد المقدمة الطللية الجاهلية تقليدا تامًا، بل حوّر فيها، فلم يمكث عند الديار طويلاً، ولم يعدد مواطن الأحبة، ولم يسقْ المقدمة الجاهلية كُلّها ؛ وذلك يرجع الى جمال البيئة الأندلسية ليصل إلى غرضه الرئيسي.

والمتتبع لقصائد ابن الخطيب يرى أنّه قد صدّر قصائده المدحية بمقدمات طللية[3] ،فمن ذلك قصيدة يمدح به السلطان أبا الحجاج يوسف ويهنِّئُه في بعض الأعياد يستهلها بالدعاء لربوع الأحبة بالسُقْيَا والمطر، ثم يحيِّي المكان الذي كان بالأمس ينعم فيه بعيش رغيد، ثم كعادة شعراء الجاهلية يقف هو ومن معه للشكوى لتلك الأطلال، فيَبُثُّ أحزانه، و يَسِحُّ بها دموعه، مُتَمَنّيًا أن تعود تلك الأيام فيقول في ذلك:

سقى دارهُم هامٌ من السُّحُبِ هَامِعٌ* *** وَلاَ أَجْدَبَتْ تلك الرُّبى والأجَارِعُ.
يَنُوبُ عَنِ الأجْفَانِ في عَرَصَاتِهَا *** إذا كَلَّ مِنْهَا عَارِضٌ مَتَتَابِعُ.
وَحَيٍّ بهَا عَهْدِي إذِ العَيْشُ نَاعِمٌ *** نَضِيرٌ واذْ رَوْضُ الشّبية يانعُ.

[1]– ينظر: حسين بكار، بناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء النقد الحديث دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط2، 1982، 212.

[2]– ينظر: حسين عطوان، مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي، دار المعارف، مصر (د،ت،ط)، من ص71 إلى 107.

[3] – ينظر: فيروز الموسى، قصيدة المديح الأندلسية، ص23. * هامع : همع أي انهمل .

وقفنـــا عليهـــا الركـــب يومًـــا وَبَعْـــدَهُ *** وثالـــثُ يـــومِ وَاقْتَضَـــى السّـــيَرَ رَابِـــعُ.
نُعفِّـــرُ فـــي الآثـــار حُـــرَّ خُـــدُودِنَا *** ونَشْكُوا إلى الأطْلاَلِ ما البَيْنُ صَانِعُ.
فَكَـمْ قـدْ رَوَتْ عنَّـا بِهَـا تِلْكُـمُ الرّبَـى *** أحاديـــثُ شَـــكْوَى سَلْسَـــلَتْهَا المَـــدَامِعُ.
مَعَاهِـدَنَا اللاَّتِـي مَحَـتْ حُسْـنَكِ النَّـوَى *** تُرَى هَلْ لَيَالِي الأُنْسِ مِنْكِ تُرَاجِعُ. [1]

فابن الخطيب يصَوِّرُ لنا من خلال وقوفه السَّريع على الأطلال ،عن مدى حزنه وآلامه ،متحسر على الأيام الجميلة التي مَضَتْ، ليشكِّل لنا لوحة مزج فيها بين القديم بما فيه من عناصر تقليدية، وبين ما استطاع أن يضيفَه من خيوط جديدة لهاته المقدمة، لينتقل بعد ذلك كله بتخلص حَسَنٍ إلى المدح الذي من أجله بنى القصيدة فيقول:

فَأَبْصَـــارُنَا وقْـــفٌ عَلَـــى كُـــلِّ مَنْظَـــرٍ *** يَـــرُوقُ، وفيهَـــا مَـــا تَلَـــذُّ المَسَـــامِعُ.
ومـنْ حَـلَّ هـذا المُلْـكَ لـمْ يَبْـغ بَعْـدَهُ *** رَحِـيلاً ولـمْ يَنْـزِعْ بِـهِ عَنْـهُ نَـازِعُ.
حَلَلْنَـــا مِـــنَ الأنْصَـــارِ حيًّـــا بِنِـــورِهِ *** أضَـــاءَتْ لأرْبَـــابِ اليَقِـــينِ المَطَـــالِعُ[2].

وفي قصيدة أخرى يُمَهِّد لمَدْح السلطان "أبي الحجاج" بمقدمة طللية يستهلها بالسؤال على الطلل النَّائي، وفيها يعبّر بألفاظ جاهلية كلفظة "النُّؤي، والسّوار الأباطح، ... فيقول في ذلك:

لِمَـــنْ طَلَـــلٌ نَـــائِي المَـــزَارِ بَعِيـــدُهُ *** وعَهْـــدٌ كَـــرِيمٌ لا يُـــذَمُّ حَمِيـــدُهُ.
عفـــا غيـــرَ نُـــؤْيٍ كالسِّـــوارِ وَمَوْقِـــدٌ *** كَمَـــا جَثَمَـــتْ بَـــيضُ الحَمَـــامِ وَسُـــودُهُ.

إذا أخْلَـــفَ الغيـــثُ الأبَـــاطِحُ والرُّبَـــا *** فتَسْـــكَاب دَمْـــعُ المُقْلَتَـــيْنِ يَجُـــودُهُ.[3]

ثم يذكر ابن الخطيب بأنَّه وقف هو ومن معه على تلك الأطلال، ليبث لواعجه،وكأنّه عليل الحبّ، وأنَّ عُوّادُه ؛هم من يجتازون تلك الطريق، والأباطح فيقول:

[1] – ابن الخطيب، الديوان، ج2، ص647.
[2] – المصدر نفسه :ج2، ص648.
[3] – المصدر نفسه :ج1، ص267.

وَقَفْنَـــا بِـــهِ عُـــوجَ المَطِـــيَّ كَأَنَّـــهُ *** عَلِيـــلٌ ومُجْتَـــازُ الرَّكْـــابِ يَعُـــودُهُ .
فَلَـــوْلاَ نَسِـــيمٌ ردَّ رَجْـــعَ جَوَابِنَـــا *** فَسَـــكَّنَ مِـــنْ حُـــرِّ الأوَامِ بـــرُودُهُ.
لمـــا حَمَلَـــتْ منَّـــا الضُّـــلوعُ غَرَامَهَـــا *** ولاَ كَـــانَ هَـــذَا الشَّـــوقُ يَخْبُـــو وَقُـــودُهُ.[1]

ثم ينتقل ابن الخطيب إلى تصوير مشاعره وما يجتاح في نفسه من تباريح الهوى فيقول:

وَتَـــاللهِ لَـــوْلاَ أنَّـــهُ تُشْـــهِرُ الجَـــوَى *** فَأَضْـــحَى وسِـــرُّ الحُـــبِّ بـــادٍ حُجُـــودُهُ.
لآثـــرتُ كَـــتْمَ الوَجْـــدَ بَـــيْنَ جَـــوَانِحِي *** وبَلَّغْـــتُ فِـــي القَلْـــبِ الهَـــوَى مَـــا يُرِيـــدُهُ.

ثم يمضي الشاعر ليخاطب العيس، وينتقل بأسلوب بديع إلى الغرض الرئيسي فيقول

ومَـا بَـالُ هَـذَا العيسِ لا تَسْـأَمُ السُّـرَى* *** كَمَـــا جُهِّـــزَتْ عِنـــدَ المَفَـــازِ جُنُـــودُه.
أميـــرٌ كَفَـــى الاسْـــلاَمَ كُـــلَّ عَظَميـــةٍ *** وقَـدْ شَـابَ مِـنْ طُـولِ العَنَـاءِ وَليـدُهُ.[2]

وإذا عدنا إلى قصيدته التي يمدح فيها كبير الوطن المراكشي عامر بن محمّد ابن علي، حيث ابتدأ القصيدة بمقدمةٍ يحنُّ فيها إلى أحبَّته، ويتذكر أيام لهوه، ثم يُكلّم ديارهم،ولكنها تعجز عن الجواب كما عجزت ديار شعراء الجاهلية من قَبْلُ فيقول:«

أَهَاجَتْـكَ ذِكْـرَى مِـنْ خَلِـيطٍ ومَعْهَـدِ *** سَـمَحْتَ لهـا بالـدَّمْعِ فِـي كُـلِّ مَشْـهَدِ.
وَعَـــادَكَ عِيـــدٌ مِـــنْ تَـــذَكُّرِ جِيـــرَةٍ *** نـــأَوْا بالـــذِي أَسَـــارَتْهُ مِـــنْ تَجَلُّـــدِ.
حَنَانَيْـكَ فِـي نَفْـسِ شُـعَاعٍ و مُهْجَـةٍ *** إذا لَـمْ تَحِـنْ مِـنْ بَعْـدِهِمْ فَكَـأَنْ قَـدِ.
ولا سَـــأَلَ الأطْـــلاَلَ بَعْـــدَ قَطِينِهَـــا *** فعيَّـــتْ جوابًـــا بَعْـــدَ طُـــولِ تَـــرَدّدِ[3].»

---

[1]– ابن الخطيب، الديوان ج1، ص268.

[2]– المصدر نفسه : ص268.

* السُّرَى : سير الليل (ينظر : محمد بن القاسم بن محمد بن بشار، الأنباري، الزاهر في معاني كلمات الناس،تحقيق: حاتم صالح ، مؤسسة الرسالة ، بيروت، لبنان ،ط1 ،1992، ج2، ص67 .)

[3]– ابن الخطيب، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، تحقيق السعدية فاغية، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء المغرب ، ط3، 1989، ص 25 .

ثم يلتفت الشاعر إلى تصوير نفسه فيصف حزنه على فراق الأحبة، لينطلق من جوى الأحزان ليرسل حِكمًا استقاها من تجاربه في الحياة فيقول:

أَسَى النَّفْسِ لاَ يَقْوَى عَلَى رَدِّ فَائِتٍ *** فَإِنْ شِئْتَ فَلْتُقْلِلْ وإِنْ شِئْتَ فَازْدَدِ.
وما رَجُلُ الدُّنْيَا سِوَى مُتَفَطِّنٌ *** لِنَكْرَائِهَا مَاضٍ مَضَاءَ المُهَنَّدِ.
إِذَا أَقْبَلَتْ بِالخَيْرِ لَمْ تَسْتَفِزَّهُ *** وانْ هِيَ ظَلَّتْ لَمْ يَقُدْهَا بِمِقْوَدِ.
وخُذْ مَا بِهِ جَادَ الزَّمانُ مُسَامِحًا *** ولا تَتْرُكْ يومَ السُّرُور إلى غَدِ. [1]

ويلاحظ أنَّ مقدمة الطلل في صدور مدائح لسان الدين لم تبق ذكرًا للآثار الدارسة ووصفًا لبقايا معاهد الأحبة، وإنَّما اكتسبتْ بُعْدًا إنسانيا ؛ ترتبط جذوره بالنَّفس البشرية تتجاوز حدود الوصف الحسّي للأطلال إلى دلالات نفسية ورمزية.[2]

ب-المقدمة الغزلية:

افتتح الشعراء الجاهليون قصائدَ كثيرةٍ بالمقدمةِ الغَزَليَّة، وتتألف هذه المقدمة من الحديث عن صَدّ المحبوبة وهجرها ،أو بُعدها وانفصالها، وما يخلفّه الهجر والمطل والفراق من تعلّق شديد، وشوق مستَبِدٍّ، ودموعٍ غِزَارٍ، يسكبها الشاعر حسرةً وألمًا ولهفةً،وسرعان ما تَفِدُ على خياله أيامهُ الماضية السَّعيدة ، حين كان يلتقي بمحبوبته،ويبوحُ كلٌّ منهما لصاحبه بحُبِّه ويبادله إعجابًا بإعجاب ،حتى إذا ما انتهى من ذلك مضى يصف محاسنها ومفاتن جسدها ...[3]

[1] – ابن الخطيب، الديوان ، ج 1، ص 311 .
[2] – ينظر: عبد الحليم حنفي ،المطلع ودلالاته النفسية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب،مصر،(د ت) 1987، ص 79 .
[3] – ينظر: حسين عطوان، مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي، ص128.

وعلى هذا النهج سار شعراء الأندلس، وشاعت المقدمة الغزلية، ومن بينهم ابن الخطيب حيث افتتح بعض قصائده التي يُمهِّد بها إلى المديح بالغزل العذري العفيف ،مقتفيا آثار منْ سبقَهُ من الشعراء، ففي هذا يقول:

فكأنّمـــا لَيْلِـــي نَسِـــيبُ قَصِـــيدَتِي *** والصُّـــبْحُ فِيـــهِ تَخَلُّـــصٌ لِمَـــدِيحِي. [1]

ونراه يفتتح قصيدة في مدح السلطان أبي الحجاج يُصدّرها بمقدمةٍ غزليةٍ، قد جمع فيها بعض مكونات المقدمة الغزلية التقليدية، إذ يبدأ بوصف محبوبته بأسلوب الاستفهام،مما يُلفت النظر، ويشدُّ الانتباه إلى الوصف فيقول:

وَسْـــوَاسُ حَلْيِـــكِ أَمْ هُـــمُ الرُّقبَـــاءُ *** للقَلْـــبِ نَحْـــوَ حَـــدِيثِهِمْ إِصْـــغَاءُ.
وَوَمِـــيضُ ثَغْـــرِكِ أَمْ تَـــأَلُّقُ بَـــارِقِ *** وشِـــهَابُ شُـــنْفِكِ* ذا أَمِ الجَـــوْزَاءُ.
يـــا بَـــدْرَ تِـــمٍّ يَهْتَـــدِي بضِـــيَائِهِ *** ســـارِيَ الفَـــلاَةِ ولَيْلَتِـــي لَـــيْلاَءُ.
يـــا بَانَـــةً، وَرَقُ الشَّـــبَابِ ظِلاَلُهَـــا *** وكَـــأَنَّ قَلْبِـــي بَيْنَهَـــا وَرْقَـــاءُ. [2]

فقد أورد الشاعر بعض الصفات التي ترددت على ألسنة الشعراء من قبل، لكنه صاغها في سياق جديدًا مستمدًا تصويره من طبيعة بلاد الأندلس، فمزج بين صوت الحلي وهمس الوشاة والرقباء، وفي هذه الصور دقّةٌ وتمعنٌ، وأجمل الصور في هذه المقدمة حينما يُصّور محبوبته كغض بانٍ، والشاعر كحمامة تستظل بظل الأوراق ثم يُعْلن أنَّها داؤه ودواؤه فيقول :

أَشْـــكوكِ أم أَشْـــكُو إليـــكِ صـــبابَتِي *** أَنْـــتِ الـــدَّواءُ ومِنْـــكِ كـــان الـــدَّاءُ. [3]

[1]– ابن الخطيب، الديوان، ج1، ص34 . * شنفك : هو القرط الذي ترتديه المرأة .
[2]– المصدر نفسه : ص93.
[3]– المصدر نفسه : ج1، ص93 .

وبذلك يكون ابن الخطيب قد صاغ المعاني التقليدية بأسلوب جديد، حيث تخفَّفَ من كثيرٍ من تقاليد هذه المقدمة، فعزَفَ عن الرحيل، وقَلَّل من ذكْرِ مفاتِنِ الجسدِ، ولم يطلْ في المقدمة الغزلية، كما أنّه أضفى عليها مُسْحَةَ الحُزْنِ تقترب من معاني الشّوق والحنين.[1]

ويمَهِّدُ الشاعر في قصيدة أخرى للمدح بمقدمة غزلية، نجده من خلال أبياتها قد برَّحَ به الوَجْد، وأضْنَاه الشَّوق في سبيل محبوبته ؛التي لا تدري ما يعانيه من أجلها، فهو يحبّها حبًّا عذريًا عفيفًـا ، فيقول:

عَجَبًا لِوَجْدٍ لاَ يَلِينُ شَدِيدُهُ *** وَغَرَامِ قَلْبٍ شَبَّ فِيهِ وَقُودُهُ.
وَلَقَدْ عَهِدْتُ القَلْبَ وَهَوَ مُوحِّدٌ *** فَعَلاَمَ يُفْضَى فِي الغَرَامِ خُلُودُهُ.
إِتلاَفُ نَفْسِي فِي هَوَاكَ حَيَاتُهَا *** وفَنَاءُ قَلْبِي فِي رضَاكِ وُجُودُهُ.
وان اسْتَرَبْتِ سَلِي شُهُودَ مَدَامِعِي *** قَدْ صَحَّ مِنْ وُجْنَتَيهِ شُهُودُهُ[2]

ثم يسترجع أيام ذكرياته الجميلة معها في رحاب الطبيعة، إلى أنْ فرَّق بينهمَا البينُ فيقول:

هَلْ تَذَكِرِينَ عُهُودَ أيَّامِ الحِمَىَ؟ *** للهِ أيَّامِ الحمَىَ وَعُهُودُهُ.
أيامَ وجْهُ الدَّهْرِ طَلْقٌ والصِّبَا *** لُدْنُ المَعَاطِفِ يَانِعٌ أُمْلُودُهُ*.[3]

ففي هذه القصيدة نجد أنَّ المقدمة الغزلية جعل لها ابن الخطيب عشرة أبيات كتمهيد ليمدح بعد ذلك السُّلطان .

[1] – ينظر فيروز الموسى ، قصيدة المديح الأندلسية ،ص 43 .

[2] – ابن الخطيب ، الديوان، ج1، ص 290.

* الأملود : الناعم الليّن من الناس .

[3] – المصدر نفسه : ج1، ص 291 .

ج-المقدمة الحماسية:

لقد كانت حياة العرب منذ القديم تعتمد -غالبًا- على الغزو والصراع مع القبائل المجاورة والأقوام الأخرى، وكان الشعر ديوان العرب، فإنَّ هذه الحياة قد انعكست على شعر العصر، وانبرى الشعراء يشاركون في تلك الغزوات من خلال صرخات الحماس وبث الحمية في نفوس الشعب وزعماء السُّلطة، وقد امتدت هذه الظاهرة إلى مقدمات القصائد مشكلة مقدمة حماسية، تحمل معاني الحض والاستصراخ وطلب العون، وكثرت هذه المقدمات في صدور قصائد المدح لارتباط معانيها غالبًا بمدح من يَطلب الشاعر العون منه.[1]

وكانت لابن الخطيب قصائد صدَّرها بمقدمات حماسية يسْتَفِزُّ بها للجهاد ،ويحثُّ العرب على ذلك ، وله في هذا قصيدةً وجَّهَهَا للمسلمين، اسْتَهَلَّهَا بمناشدة إخوانه من أجل تجميع قوى المسلمين ضد النَّصارى، وتبصيرِهِم بالخطر الذي يُحْدِقُ بما تبقّى من الأندلس فيقول فيها:

أإِخْوَانَنَا لاَ تَنْسَوْا الفَضْلَ والعَطْفَا *** فَقَدْ كَادَ نُورُ اللهِ بِالكُفْرِ أنْ يُطْفَا.
إذْ بَلَغَ المَاءُ الزُّبَى فَتَدَارَكُوُا *** فَقَدْ بَسَطَ الدِّينُ الحَنِيفُ لَكُمْ كَفَّا.
تَحَكَّمَ فِي سُكَّان أَنْدَلُسَ العِدَى *** فَلَهْفًا عَلَى الاسْلاَمِ لَهْفًا.
وجاسَتْ* جُيُوشُ الكُفْرِ بيْنَ حِلاَلِهَا* *** فَلاَ حَافِرًا أبْقَتْ عَلَيْهَا وَلاَ ظِلْفًا. [2]

ثم يَعْرِضُ ابن الخطيب ما آل إليه الوضْع في الأندلس من الرُّعب والخوف.

وأنَّ العدّو ضيّقَ الخِنَاقَ عليهم فلا ملجأ، ولا ملاذ يحتمون به فيقول:

---

[1]- ينظر :فيروز الموسى، قصيدة المديح الأندلسية، ص89.

[2]- ابن الخطيب، الديوان، ج2، ص677.

*جَاسَتْ : عَاثَتْ فَسَادًا .

* حِلاَلِهَا : أي ربوعها وديارها .

أَحَـاطَ بِنَـا الأعْـدَاءُ مِـنْ كُـلِّ جَانِـبٍ *** فَـــلاَ وَزَرًا عَـــنْهُمْ وجَـــدْنَا وَلاَ كَهْفَـــا.
فَمِـــنْ مَعْقِـــلٍ حَـــلَّ العَـــدُّو عِقَالَـــهُ *** وَمِنْ مَسْجِدٍ صَارَ الضّلالُ بِهِ وقْفَا.[1]

وبعد أتى ابن الخطيب على اثنتي عشرة بيتا كمقدمة يحثُّ المسلمين فيها، يَصِلُهَا بمدح المسلمين كافةً من خلال أَنَّهُمْ إِخْوَةٌ في الاسلام فيقول:

وَسِـــيلَتُنَا الاسْـــلاَمُ وَهُـــوَ أُخُـــوَّةٌ *** مِـــنَ المَـــلأِ الأَعْلَـــى تُقَرِّبُنَـــا زُلْفَـــى.
أَخَوْفًـا وقَـدْ لُـذْنَا بجَـاهِ مَـن ارْتَضَـىَ *** وذُلاً وقَدْ عُذْنَا بِعِزِّ من استصْفَى.[2]

ومن هنا فالمقدمة الحماسية تحمل معان المديح بالإضافة إلى لهجة الاستغاثة والاستنجاد، فقد ارتبطت غالبا بالمدح لتلازم معانيها.

- **التّخلص:**

إنَّ التَّخلُّص في مفهومه هو انتقالٌ من غرضٍ إلى غرضٍ آخر، في قصيدة متعددةِ الموضوعات بأسلوب لطيفٍ، وعن ذلك يقول ابن رشيق «وأوْلى الشعر بأن يُسمى تخلصًا ما تخلص فيه الشَّاعر من معنى إلى معنى، ثم عاد إلى الأوَّل وأخذ في غيره، ثم رجع إلى ما كان فيه ... »[3]، و يسميه ابن رشيق خَرُوجًا فيقول: «أنْ تخْرج من نسيب إلى مدح أو غيره بلطف تحيل، ثم تتمادى فيما خرجت إليه».[4]

لقد تميّز الأندلسيون في قصائدهم بِحُسْنِ التَّخلص، والانتقال من غرض لآخر،وسلكوا لهذا مسالكَ عدَّةٍ للتَّخلُّصِ الرّقِيقِ، والانتقال الهادي وذلك يتمّ بواسطة روابط فنية كحروف العطف مثل : أو ، أو الواو، وغيرُ ذلك بغرض ايهام المتلقي باتصال المعنى داخل السياقات المختلفة وانْسِيَابه انسيابًا عفويًا.[5]

---

[1]– ابن الخطيب، الديوان، ج2، ص677

[2] – المصدر نفسه : ج2، ص 678 .

[3]– ابن رشيق ، العمدة ، ج1، ص 237 .

[4]– المصدر نفسه :ج1 ، ص 234 .

[5]– ينظر: أشرف نجا، قصيدة المديح في الأندلس، ص 174 .

ونجد أنَّ ابن الخطيب على غرار شعراء الأندلس قد حرص على تحسين تخلّصه وتجديده سيّما في مدائحه، مستجيبا في ذلك لتوجيهات النُّقاد في هذا الشأن، ومن أمثلة تخلُّصاته الجيدة قوله بعد أن أتى بمقدمة غزلية، ذكر فيها اشتياقه وأنَّه سلَّم أمرَ الغرام إلى ربِّهِ، ثم يسألُ اللهَ أنْ يُكَفِّرَ عنهُ ذنبَه، بوداده لخليفة المسلمين "يُوسف"؛ الذي هو من سلالةِ الأنصار فيقول:

سَـأَذْهَبُ فِـي اللَّـذَّاتِ مِـلْءَ أَعِنَّتِـي *** وَأُرْكِـضُ خيْـلَ اللَّهْـوِ فـي طَلَـقِ رَحْـبِ.
وإنَّ وِدَادِي فِـي الخَلِيفَـةِ "يُوسـفٍ" *** يُكَفِّـرُ عنْـدَ اللهِ مَـا كَـانَ مِـنْ ذَنْبِـي.
سُـلاَلَةَ أَنْصَـار الهـدَى، وحُمَاتُـهُ *** ووارثُ حِـزْبِ اللهِ، نَاهِيـكَ مـنْ حِـزْبِ.[1]

ثم يسترسل الشاعر في الثَّناء على السُّلطان فيقول:

مُحيّا كَمِثْلِ الشَّمْسِ فِي رَوْنَقِ الضّحى *** وكفٌّ كَمَا حُدِّثْتَ عَنْ وَاكِفِ السُّحْبِ.
يُصَـاحِبُهُ التَّوفِيـقُ فِـي كُـلِّ وُجْهَـةٍ *** وَيَقْدُمُ مِنْهُ الجَيْشُ، جَيْشٌ مِنَ الرُّعْبِ[2]

فقد شبّه وجهه ومحياه بالشمس في وقت الضحى ، وأنّ كفه مبسوطة، وذلك لكثرة نواله وكثير عطاياه ، ووصفه بأن التوفيق يحل معه أينما ذهب .

ومن بديع تخلُّصاته التي نجد فيها الدِّقة في الخُروج من جزء إلى جزء آخر خروجًا يُشْعر بالتحام الأجزاء وتماسُكِهَا، حيث ابتدأ في إحدى قصائده المدْحِيَّة بشكواه لربّة البيت التي لم يَرِقَّ قلبُهَا اتجاه ابن الخطيب، بينما هو قلبه قد انْفَطَرَ من شدّة حبّه لها، ثم يَلُومُ العُذَّالَ على حبّه، فيقول متخلِّصًا الى المَدِيـحِ بأسلوبِ التَّعَجُّبِ:

لا تُخْـــدَعَنَّ فَـــإِنَّنِي إِنْسِـــيَّةٌ *** والحُسْـنُ يَلْعَـبُ بـالنُّهَى غَـرَّارُهُ.
أَوَ مَا تَرَى المَلِكَ "ابْنَ نَصْرٍ "يُوسَفًا" *** أَسَـدًا وأَنْصَـارُ النَّبِـيِّ نِجَـارُهُ.

[1] – ابن الخطيب، الديوان، ج1، ص122.
[2] – المصدر نفسه: ج1، ص123.

مَلِــكٌ إذَا دَهَــمَ الــرَّدَى تَــرَكَ العِــدَى *** جَــزَرًا تُجِــرِّ ـرُ بــالفَلاَ أكسْــارُهُ.[1]

ويُمكن القول: إنّ ابن الخطيب في جل قصائده المدحية قد تمكَّن من التخلّص تمكنًّا يدل على حِذْقِه، وقوة تَصَرُّفِه، وطولِ بَاعِهِ، وهذا ما أسْمَاهُ النُّقَّاد بحُسْنِ التَّخلصِ.[2]

- **الموضوع الرئيسي:**

يُعدُّ الموضوع الرئيسي «البنيةَ التي تَرْتَبِطُ بعلاقاتٍ داخليةٍ مع سائر البنيات الأخرى سواء منها المقدمة ،والتَّخلُّص، والانتهاء، مكونةً جميعًا في نهاية القصيدة».[3]

والموضوع الرئيسي هو السبب المباشر في خروج القصيدة إلى النُّور، لأنَّ الأغراض الأخرى التي تتضّمنها القصيدة، ما هي إلاَّ تسهيلات له، ولذلك تأخذ القصيدة اسمها منه فنقول عنها بأنها قصيدة فخرٍ، أو هجاءٍ، أوغزلٍ، أو مدحٍ ...

وقد تنوعت موضوعات ابن الخطيب الرئيسية كالوصف والغزل، والرثاء والخمرة والاخوانيات، والمدح وغيرها من الأغراض الأساسية التي نجدها في ديوانه، إلاَّ أنَّ تركيزنا سيكون على المدح، الذي شغل حيزًا كبيرًا عند شاعرنا ،إذ أنَّ ثلثيْ الدِّيوان تَقَريبا كان جلُّه مدَح أنشدها ابن الخطيب على فترات مختلفة، وجَّهَهَا لأشخاص عدَّة، ولعل المنصب الذي كان يشغله، وعلاقته الوطيدة بالطبقة الحاكمة، جعلته يسعى للوصول إلى رضا هذه الطبقة فأشاد بانتصاراتها، وخلّد مأثرها.

---

[1] – ابن الخطيب ، الديوان ، ج1، ص 371 .

[2]– ينظر: حسن بكار، بناء القصيدة، ص222.

[3]– امْحمّد بن لخضر فورار، الشعر الأندلسي في ظل الدولة العامرية،دار الهدى، عين مليلة،(د ط)،2009،ص186.

ويظهر من خلال قصائده المدحية عاطفة الحب والاخلاص تجاه حكام الدولة النّصرية وخير دليل على ذلك قوله في المدح:

مَـالِي سِـوَى حُبِّـي لِمُلْكِـكَ مَـذِهَبٌ *** ولَرُبَّمَـــا تَتَحَـــالَفُ الأهْـــوَاءُ. [1]

والدارس لمدائحِ ابن الخطيب يرى أنَّ جُلّها موجَّهَةٌ إلى الأمراء والملوك، وأنّها من حيث المضمون أو المحتوى لها جانبين : جانب يريك الصفات التي يَخْلَعُها الشعراء على مَمْدُوحِيهِمْ ، وهذه لا تخرج عادةً عن الصّفات التقليدية التي يطيب للعربي أن يُوصَفَ بها،كصفات المروءة والوفاء والشجاعة والكرم وما أشبه ذلك، وأمَّا الجانب الثاني فيدور حول انتصارات الممدوحين، التي تُعدُّ نصرًا للإسلام والمسلمين، ويدخل في ذلك وصف جيوشهم ومعاركهم الحربية.[2]

وأكثر ما تقال المدائح في المناسبات الهامة، كالبَيْعَة والأعياد، أو انْجَابِ الأولاد للأسرة المالكة، أو شفاء الخليفة من علَّةٍ أصابَتْه.[3]

لقد أدرك ابن الخطيب أربعة سلاطينٍ منْ بني نصر، فنال كل واحد منهم حظًا من مدحه وهم: أبو عبدالله محمد بن اسماعيل ت 733هـ ، وأبو الحجَّاج يوسف بن اسماعيل **ت**

[1]– ابن الخطيب، الديوان، ج1، ص96.

[2]– ينظر: عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، ص185.

[3]– ينظر: يوسف طويل، مدخل إلى الأدب الأندلسي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 1991، ص17.

755هـ ، وأبو عبدالله محمَّد بن يوسف الملقب بالغني بالله ت 793هـ ، و اسماعيل بن يوسف ت 761.[1]

وكانت أول قصيدة ألقاها على مسامع السُّلطان أبي عبد الله ، وابن الخطيب لا يزال في العشرينات من عمره، وهي أوليات نظمه يقول فيها:

أهْـلاً بطيـفٍ زَارَنِـي غَسَـقَ الـدُّجَى *** فأَعَـادَ لَيْلَتَنَـا صَـبَاحًا أبْلجَـا.
فَتَحَـتْ زِيَارَتُـهُ لصَـبِّ هَـائِمٍ *** بَـابَ القَبُـولِ وكَـانَ قِـدْمًا مُرْتجَـا.[2]

فقد استهل ابن الخطيب مدحته بالغزل ثم يُعرج إلى مدح السُّلطان بقوله:

هـبْ لِـي رضَـاكَ فـإنَّنى مُسْتَشْـفِعٌ *** بحُلَـى أَمِيـر المسـلمين المُرتَجَـى.[3]

ونراه يمدحه بقصيدة ثانية يُهنّئه فيها لدى عودته من المغرب، يستهلُّها بمقدمةٍ خمريةٍ فيقول:

نبِّـهْ نَـدِيمَكَ للصَّـبُوح وهَاتِهَـا *** كالشَّـمْسِ تُشْـرقُ مِـنْ جَمِيـع جِهَاتِهَـا.
واصْـرِفْ بِصِـرْفِ الـرَّاح همّـاً كَامنًـا *** وأَحْـيِّ السُّـرُورَ تنعُّمًـا بحياتهـا.[4]

ثم يُعرّج إلى موضوعه الرئيسي وهو مدح السُّلطان، فيصفه بأنَّه استحق الخلافة منذ الصّغر فيقول:

---

[1]- ينظر: عبد الرحمن علي الحجي ، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتّى سقوط غرناطة، دار القلم، دمشق سوريا ط2، 1981، ص 563 - 564 .

[2]- ابن الخطيب، الديوان، ج1، ص204.

[3] - المصدر نفسه: ج1، ص 205 .

[4]- المصدر نفسه: ج1، ص169.

مَلِـــكٌ أَعَدّتْـــهُ الخِلافـــةُ نَاشِـــيًا *** والـذُّعْرُ يُبْـرقُ تحْـتَ حَـدّ ظُباتهـا.
فَغَـــدًا أَحَـــقَّ بِهَـــا وقَـــامَ بِعِبْئِهَـــا *** وسَـــمَا بأَقْرَبِهَـــا إلـــى غَايَاتِهَـــا. [1]

ثم يتابع مدحه، واصفًا ممدوحه بالشجاعة والعدل، وأنَّ الروم تهابه فيقول:

وَأَتَـــاحَ أَنْدَلسًـــا بِحِـــقِّ حُسَـــامِهِ *** قَسْـرًا فَأَحْيَـا الأرضَ بعـدَ مماتِهَـا.
وأفَـاضَ مَـاءَ العَـدْلِ فِـي أَقْطَارِهَـا *** فنَمَـا بِـذَاكَ المَـاءُ غَـضُّ نَبَاتِهَـا. [2]

ثم يقول:

يـا خيـر مَـنْ وَطِـيءَ العتـاقَ ركَابُـهُ *** وأعَـزَّ مَـنْ حملَـت علَـى صَـهَوَاتِهَا.
بلغـتْ ملـوكَ الـرُّومِ عَنْـكَ مهابـةٌ *** فغـدتْ تَمُـجُّ الرِّيـقَ فِـي لَهَوَاتِهَـا.
لا غَـرْوَ أنَّ الرُّعْـبَ خَـامَرَ قَلْبَهَـا *** فالأسْـدُ تُخْشَـى وهِـيَ فِـي أجَمَاتِهَـا. [3]

وثاني السلاطين الذين مدحهم ابن الخطيب السلطان أبو الحجّاج يوسف، حين أضفى عليه بعض القيم التي عهدتها العرب في مدائحها منها: شرف النّسب، والكرم ونصرة الدين والشّجاعة، والعدل، والحزْم، إلى غير ذلك.

فنرى ابن الخطيب في إحدى قصائده يمجد السلطان بشرف نسبه الذي ينحدر إلى الصحابي الجليل سعد بن عبادة سيد الأنصار [4] ، إذ يقول:

ألسْـتَ مـنَ القَـوْمِ الـذِينَ إذَا انْتَمَـوْا *** نَمَـتْهُمْ إلـى الأنْصَـارِ غُـرُّ المَنَاسِـبِ.

[1]– ابن الخطيب ، الديوان ،ج1، ص 170 .
[2]– المصدر نفسه : ج1 ، ص 171 .
[3] – المصدر نفسه : ج1 ، ص 171
[4]– ينظر: ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص 21.

سـماحةُ إيمـان واِشْـراقُ أوْجُـهِ *** وصِـحَّةُ أحْـلاَمٍ وغُـرُّ مَنَاقِـبِ.
إذا أشْـرَقَتْ يـومَ النَّـوَالِ وُجُهـوهُمْ *** رأيـتَ بُـدُورًا فِـي خِـلاَلِ السَّـحَائِبِ. [1]

ويزيد السلطانَ رفعةً إذْ أنَّ جد بني نصر؛هو وزير الرَّسول صلَّى الله عليه وسلّم،وصاحبه وهي قمةُ فخرِ الورى:

ومـنْ ذَا فخْـرٌ كسـعدٍ علَـى الـوَرَى *** فَسَـعْدٌ وزيـرٌ للنَّبـيِّ وصَـاحِبُ.
مَكَـارمُ لَـمْ تُخْلـقْ عَلَـى بُعُـد المَـدَى *** ولا شابَ منْهَا الخَالِصَ البَحْتَ شَائِبُ. [2]

وقوله أيضًا في مدح السلطان بشرف النَّسب:

إمَـامُ هُـدًى مِـنْ آلِ سَـعْدٍ نِجَـارُهُ *** وَنَصْـرُ الهُـدَى مِيرَاثُـهُ لِبَنِـي سَـعْدِ.
مَـآثِرُهُ تَلْتَـاحُ فِـي أفُـقِ العُـلاَ *** وآثَـارُهُ تَسْـتَنُّ فِـي سُـنَنِ الرُّشْـدِ. [3]

ويمدح ابن الخطيب السلطان أبا الحجاج أنَّه من حزب الرسول صلّى الله عليه وسلّمَ

ومن القوم الذين نصروه فقال:

وظللْـتُ أطْلُـبُ فـي الكِـرَامِ نَشِـيدَتِي *** حتَّـى أنَخْـتُ بعُقْـوَةِ الأنْصَـار.
فحَطَطْـتُ رحْلِـي بـين نِيـرَانِ القِـرَى *** ورَمَيْـتُ بَيْـنَهُمُ عَصَـا التَّسْـيَار.
للهِ مَثْـوَى جنَّـةٍ يمَّمْتُـهُ *** حِـزْبُ الرَّسُـولِ وأُسْـوَةُ المُخْتَـار.
نَصَـرُوا الرَّسُولَ وقَدْ دَجَـى لَيْلُ الهَـوَى *** وَالـرَّوْعُ دامِـي النّـابِ والأظْفَـارِ.
أخَلِيفَـةَ الرّحمَـانِ وابْـنَ عَمِيـدِهِمْ *** والمُرْتَجَـى لِجَلاَئِـلِ الأخْطَـار.
حَيَّـاكَ بِالإرْشَـادِ وبالاسْـعَادِ مَـنْ *** أحْيَـا بِـكَ الاسْـلاَمَ بَعْـدَ تَبَـار. [4]

وقوله أيضًا في شرف النَّسب:

أبنـي عُبـادة إنَّ فَخْـرَ قَـدِيمِكُمْ *** تُلِيَـتْ بفُرْقَـان الهُـدَى أسْـطَارُهُ.

---

[1] – ابن الخطيب، الديوان ، ج1، ص114.
[2] –المصدر نفسه : ج1 ،ص 120.
[3] – المصدر نفسه :ج1 ، ص 299.
[4] – المصدر نفسه : ج1، ص 369 .

نَصْـــرُ النُّبُـــوَّةِ فِـــيكُمِ مُسْـــتَوْدَعٌ *** فَهُـــوَ النَّسِـــيمُ وأنْـــتُمْ أسْـــحَارُهُ.
فـي مِصْـرَ قَلْبِـي مِـنْ خَـزَائِنِ "يُوسُـفَ" *** حُـــبٌّ وعِيـــرُ مَـــدَائِحِي تَمْتَـــارُهُ.
حَلَّيـــتُ شِـــعْرِي بِاسْـــمِهِ فكأنَّـــهُ *** فِـــي كُـــلِّ قَطْـــر حَلَّـــهُ دِينَـــارُهُ. [1]

وجُلُّ مدائح ابن الخطيب للسلطان أبي الحجاج لا تخلو من ذكر شرف نسبه وتمجيده، وأنَّ السلطان فرع من الأصل الكريم؛ وهو الأنصار يقول في ذلك:

تُنْمِيـــهِ مـــن أبْنَـــاءِ نُصَـــيْر سَـــادَةٌ *** سَـنُّوا الهُـدَى والعَـدْلِ والاصْـلاَحَا. [2]

وقوله أيضًا:

أبَنِـــي الأنْصَـــار لَكُـــمْ شَـــرَفٌ *** حُكْـــمُ القُـــرْآن بِـــهِ نَطَقَـــا.
آوَوْا، نَصَـــرُوا، أُوذُوا ،صَـــبَروا *** كَـــانُوا لِرَسُـــولِ اللهِ وِقَـــا. [3]

وقوله أيضًا:

مـن القَـوْمِ آوَوْا خَـاتَمَ الرُّسْـلِ "أحْمَـدِ" *** وهُـمْ عَضَّـدُوا التَنْزِيـلَ والحَـقَّ والوَحْيَـا. [4]

أمَّا الفضيلة الثانية التي امتدح ابن الخطيب السُّلطان أبا الحجاج هي فضيلة الكرم والتي أخذت حيِّزًا كبيرًا في مدائحه، ولم يكن ابن الخطيب يتغنَّى بكرم السلطان لينال نواله وعطاياه، ويدافع عن نفسه بقوله:

ومـا الشِّـعر إلاَّ مـن قـوافٍ نظمتُهـا ** ومـــا خَلُصَـــتْ إبريـــزه شُّـــعلةُ اللُّـــبّ.
ولسـتُ كمـن يعتمـدُّ بالشـعر مكسـبًا ** هُبلـت رضـيع المجـد إنْ كـان مـن كسـبي [5]

ولما يتعرض ابن الخطيب لمدح السلطان يشبهه بالغيث والحيا والبحر ونرى ذلك في قوله:

---

[1]– ابن الخطيب، الديوان ج1،ص 373 .
[2]– المصدر نفسه : ج1، ص 223.
[3]– المصدر نفسه : ج2، ص 688.
[4]– المصدر نفسه : ج2، ص776.
[5]– المصدر نفسه : ، ص 118.

مَــنْ للْحَيَــا بنَــوَالِ كَفّــكَ إنْ هَمَــىَ *** مَــنْ للسَّــوابق أَنْ تَجُــوزَ مَــدَاكَ. [1]

ويقول أيضًا:

مَلِــكٌ إِذَا بَــذَل الحُبَــا قَــالَ الحَيَــا *** أَخْشَــىَ الفَضِــيحَةَ إنْ أَنَــا جَارَيْتُــهُ. [2]

فجعل ابن الخطيب الحيا والمطر يخشى مجاراة السلطان لكثرة عطاياه، وكذلك من الصُّور التي تفنَّنَ فيها ابن الخطيب ؛أنْ جعل الغيث يرجِعُ في قَسَمِهِ ويحنثُ إذا أراد منافسةَ أبي الحجاج فيقول:

وانْ حَلَــفَ الغَيَــثُ السَّــكُوبُ بأنَّــهُ *** أَعَـمُّ نَـدًى مـنْ يُوسُـفَ فَهُـوَ حَانِـثُ. [3]

ونراه في قصيدة أخرى يصف أبا الحجاج بأنَّ البحر يملكه وهو لشدة وكثرة ما ينفقه فيقول:

لَقَـدْ ظَـلَّ مَـنْ يَبْغِـى مِـنَ البَحْـر ظِلَّـةً *** ولَـمْ يَـدْر أنَّ البَحْـرَ أَنْمُلَـكَ العَشْـرُ. [4]

ومن الفضائل التي مدح بها ابن الخطيب سلطانه "أبا الحجَّاج" فضيلة الشجاعة،ونصرة الدين وإعلاء كلمته، وأن السلطان لايتوانى في ذلك ، وقد ترددت هذه الفضائل قصائده المدحية منها قوله:

وَسَــيْفُكَ مَرْهُــوبُ الغِــرَار حَدِيــدُهُ *** وسَــيْبُكَ مَسْــكُوبٌ النَّــوَالِ عَتِيــدُهُ. [5]

وقوله أيضًا يمدحه بالشجاعة:

---

[1]– ابن الخطيب، الديوان ج2، ص 470.

[2]– المصدر نفسه: ج1، ص 184.

[3] – المصدر نفسه: ج1 ،ص 190.

[4]– المصدر نفسه: ج1،ص 402.

[5] – المصدر نفسه: ج1، ص 270.

إنْ رَاعَ خَطْـبٌ أوْ عَـرَا جَـدْبٌ تُـرَى *** كفَّـــاهُ تَـــدْرَأُ ذَا وذَاكَ تُـــدَاري.[1]

وقوله يمدحه بأنْ أعلى كلمة الدين وأظهره وأنَّه قهر أعادِيَهُ بقوله:

أظْهَـرْتَ دِيـنَ اللهَ فِـي ثَغْـرِ العِـدَى *** وقَهَـرْتَ تِمْثَـالاً بِـهِ وصَـلِيبًا.[2]

وقوله في السياق نفسه:

وعَضَـدْتَ دِيـنَ اللهِ يَـا ابْـنَ نَصِـيرِهِ *** حَتَّـى سَـمَا فـوقَ السَّـمَاءِ عَمُـودُهُ.[3]

وقد جعل الشاعر أبا الحجاج عماد الدين، ولولاه لأضحى الدِّين مائلاً:

والـــدّين ديـــنُ اللهِ أَنْـــتَ عِمَـــادُهُ *** قَـــدْ أصْـــبَحَ مَـــائِلاً لَوْلاَكَـــا.[4]

ويمدحه أيضًا بأنَّه كرَّس نفسه وحياته للجهاد ضد المارقين، وأنَّ هذا العمل يرضي الله عنه:

أزْمَعْـــتَ فِـــي اللهِ الجِهَـــادَ وطَالَمَـــا *** أرْضَـــى الإِلَـــهِ جِهَـــادُكَ المَقْبُـــولُ.
وأَنَفْـــتَ للـــدِّين الحَنِيـــفِ وأهْلَـــهُ *** مِـــنْ أنْ يُطـــيحَ نَجِيعَـــهُ المَطْلُـــولُ.[5]

وكذلك مما مدحه به بأنَّه رجيحُ العقل سياسي مُحنَّك يستطيع معالجة الخطوبِ كمعالجة الطبيب الحَذِقِ الماهر يقول في ذلك:

ورجَاحَـــةٌ لـــو كـــان بعـــض وقَارِهَـــا *** بـــالرِّيح كَانَـــتْ لا تُحِيـــرُ حَرَاكَـــا.[6]

وقوله في سياسته:

---

[1]– ابن الخطيب، الديوان، ج1،ص 369.
[2]– المصدر نفسه: ج1، ص 103.
[3]– المصدر نفسه: ج1، ص 293.
[4]– المصدر نفسه: ج1، ص 469.
[5]– المصدر نفسه :ج1، ص487.
[6]– المصدر نفسه : ج1،ص 469.

وعَـــالجَ دَاءَ الـــدَّهْر مِنْـــكَ مُجَـــرِّبٌ *** طَبِيـــبٌ بـــأدْوَاءِ السِّيَاسَـــةِ مَـــاهِرُ.[1]

وقوله:

سَـــاسَ الـــبِلاَدَ ورَاضَ مِـــنْ دَهْمَائِهَـــا *** إبـــلاً صِـــعَابًا لا تُطِيـــقُ خِطَامَـــا.[2]

ويقول في هذا السياق:

وأدَرْتَ أفْـــــلاَكَ السِّياسَـــــةِ فَوْقَـــــه *** فـــافْتَرَّ فِـــي لَيْـــل الخُطُـــوبِ نَهَـــارُهُ.[3]

ونراه أيضًا يمدحه بالمجد والسؤدة ورفعة المنزلة في الكثير من شعره ومنه قوله:

ولله مِـــنْ مَجْـــدٍ رَفِيـــع عِمَـــادُهُ *** تَبِيـــتُ النُّجُـــومُ الزُّهْـــرُ دُونَ مَنَالِـــهِ.[4]

ومجد أبي الحجاج كنار شبّ ضرامها لا ينكرها جاحد:

هَيْهَـاتَ يجْحَـدُ فَضْـلَ مَجْـدِكَ جَاحِـدٌ *** إنَّ العُـــلاَ عَلَـــمٌ وفَخْـــرُكَ نَـــارُهُ.[5]

ويمدحه بعلو المنزلة كعلو السحب في السماء:

مَقَامُـكَ حيْـثُ السُّـحُبُ هَامِيَـةُ النَّـدَى *** مَقِيـلٌ لإِصْـبَاح السُّـرَى فِيـهِ إِحْمَـادُ.[6]

ويبالغ ابن الخطيب في مكانة السلطان ويرفعه فوق البدر بقوله:

وهَيْهَـاتَ أيْـنَ البَـدْرُ مِنْـكَ إذا بَـدَا *** وكيـف يجُـوزُ اللُّـبْسُ ،والفـرق ظَـاهِرُ.[7]

أما السُّلطان الثالث من سلاطين بني نصير الذي مدحه ؛ هو السُّلطان (محمد بن يوسف بن اسماعيل الملقب بالغنيِّ بالله)، والملاحظ أنَّه لم يحظ بعناية ابن الخطيب على

[1]– ابن الخطيب، الديوان ،ج1، ص 389.

[2] – المصدر نفسه: ج2، ص 535.

[3]– المصدر نفسه: ج2، ص 373.

[4]– المصدر نفسه: ج1، ص 484.

[5]– المصدر نفسه: ج1، ص373.

[6]– المصدر نفسه: ج1، ص 272.

[7]– المصدر نفسه : ج1 ، ص 391.

الرغم من طول المدة التي جمعت بينهما، فعدد القصائد التي قالها في مدحه ثمانية مِدَحٍ،قِيلَتْ في مناسبات مختلفة، وتُعد القصيدة اللامية التي مدح فيها سلطانه الغنيَّ بالله،أعظم ما نَظَمَ في حق السلطان وكان عدد أبياتها (197) بيتا، وأسماها "المنْحُ الغريبِ في الفَتْحِ القَرِيبِ"، ابتدأها بحكمة:

الحَـــقُّ يَعْلُـــوُ والأبَاطِـــلُ تَسْـــفُلُ *** واللهُ عَـــنْ أَحْكَامِـــهِ لا يُسْـــأل.[1]

ثم يعرج بعد خمسة أبيات من الحكمة إلى موضوعه الرئيسي ألا وهو مدح الغني بالله ليقول:

أمُحَمَّـــدٌ والحَمْـــدُ مِنْـــكَ سَـــجيَّةٌ *** بحليِّهَـــا بَـــيْنَ الـــوَرَى يَتَجمَّـــلُ.
أمَّـــا سُـــعُودُكَ فَهُـــوَ دُونَ مَنَـــازِعٌ *** عَقْـــدٌ بِأَحْكَـــامِ القَضَـــاءِ مُســـجَّلُ.[2]

ثم يُعَدِّدُ شمائله المحمودة سواءً الخُلُقِيَّة أو الخَلْقِيَّة:

ولـــك السّـــجايا الغُـــرّ والشِّـــيَمُ التـــي *** بغريبهـــــا يتمثَّـــــل المتمثـــــل.
ولـــك الوقـــار إذا تزلزلـــت الرُّبـــى *** وهفـــت مـــن الـــروع الهضـــاب المُثَّـــلُ.
ولـــك الجَبِـــينُ الطَّلْـــقُ والخُلُـــقُ الـــذي *** لَحْـــظُ الكَمَـــالِ بلحْظِهِـــنَّ مُوكَّـــل.
النُّـــورُ أنْـــتَ، وكُـــلُّ نُـــورِ دُجْيَّـــةٌ *** والبَحْـــرُ أنْـــتَ وكُـــلُّ بَحْـــرِ جَـــدْوَلُ[3]

ومع كل هذه القيم التي أضفاها ابن الخطيب على ممدوحه إلاَّ أنَّه يرى لم يُوفِ حقَّه:

ولله مـــا وفّـــى بحقـــك مـــادحٌ *** واللهِ مَـــا جلَّـــى بحَمْـــدِك مِقْـــوَلُ.[4]

ويمدحه أيضًا بأنَّه أحيا دين محمد صلى الله عليه وسلم:

---

[1]– ابن الخطيب ، الديوان ،ج2، ص 495.
[2]– المصدر نفسه : ج1، ص 496 .
[3]– المصدر نفسه : ج1، ص 497 .
[4]– المصدر نفسه: ج1، ص 496.

محمَّــدٌ قــد أحييــت ديــن "محمَّــدٍ" ** وأنْجَـزْتَ مـن نَصْـرْ الهُـدَى سَـابِقَ الوَعْـدِ.[1]

ويمدحه بالجود والعطاء الذي لا تبذير فيه بل هو نابع من حِكمةٍ، ورأيٍ سديدٍ:

وتَجْمَــعُ بــيْنَ القَــبْضِ والبَسْــطِ كَفُّــهُ *** بِحِكْمَـةِ مَنْ فِـي كَفِّـهِ القَبْصُ والبَسْطُ.[2]

ويصفه بأنّه اعتلى المجد فلا أحد يدانيه، ولا أنَّ المجد الذي هو فيه يُتخيَّل:

مــن ذا يُجيــدُ الوَصْــفَ مِنْــكَ خَيَالُــهُ *** وصِـفَاتُ مَجْـدِكَ فَـوْقَ مَـا يُتخيَّـل.[3]

أمَّا عن رابعٍ من مَدَحَهُ ابن الخطيب فكان السُّلطان اسماعيل بن يوسف ؛الذي نال الحُكم بعد تغلُّبه على أخيه الغني بالله في عملِ انقلابي، فقد خصَّهُ بمَدْحِيَّةٍ واحدة، وكان الدافع منها اتّقَاءُ شَرّهِ واستئمان غَدْرِهِ، وتقع القصيدة في إحدى وثلاثين بيتًا، ليس فيها من المدح سوى بيتين، وباقي الأبيات في النَّصيحة والوعظِ، وما على المَلِكِ اتِّخَاذُه فِي شؤونِ مُلْكِه:

مَــوْلاَيَ يَــا خَيْــرَ مُلــوكِ الــوَرَى *** ونُخْبَــــةَ النَّصْــــر وأَرْبَابُــــهُ.
قُمْــتَ بِــأَمْرِ أَنْــتَ أَهْــلٌ لَّــهُ *** فَلْتَــأتِ هــذا الأمْــرَ مِــنْ بَابِــهِ.[4]

لم يقتصر ابن الخطيب في مديحه لسلاطين الأندلس فقط، بل تعدى ذلك ليشمل بلاد المغرب،فقد مدح خمسة سلاطين من دولة بني مرين،وسلطان من دولة بني زيان ،حيث بلغت مجموع القصائد المدحية في سلاطين المغرب ثلاثين قصيدة جاءت على ثمانمائة وسبع و ثلاثين بيتا (837)،على الرغم من أن شاعرنا لم يمكث في المغرب طويلا.

[1]– ابن الخطيب ، الديوان ،ج1، ص 307.
[2]– المصدر نفسه : ج2، ص 458.
[3]– المصدر نفسه : ج2، ص 496.
[4]– المصدر نفسه : ج1، ص 134.

وتُعَدُّ أبرز المِدَح التي لقيت استجابة كبيرة عند بني مرين تلك المِدْحَةُ التي أنشدها بين يدي السلطان أبي عنان* ، لمّا وفد ابن الخطيب إليه سفيرا من الأندلس:

خليفةَ اللهِ ساعَدَ القَدَرُ *** عُلاَكَ مَالاحَ فِي الدُّجَى قَمَرُ[1]

و مدح أيضا أبا بكر سعيد بن أبي عنان في مدائح كثيرة يقول في إحداها :

أميرٌ كأنَّ قُمَيْرَ الدُّجَى *** أفاض الضِّياءُ عَلى صَفْحَتَيْهِ.
تَمَلأَّ قَلْبِي مِنْ حُبِّهِ *** غَدَاةَ نَظَرْتُ بِعَيْنِي إلَيْهِ.
فَلاَ بَسَطَ اللهُ كَفَّ الرَّدَى *** لِذَاكَ الشُخَيْصِ ، و ذاكَ الوُجِيْهِ.[2]

و يهَنِّئُهُ بتَولِّي السُّلْطة بقوله :

هنيئًا بِمَا خُوِّلْتَ مِنْ رفْعَةِ القَدْر *** ودُمْتَ قَريرَ العَيْن مُنْشَرِحَ الصّدْر .
و بُشْرَى بِمُلْكٍ قَدْ طَلَعْتَ بِأُفْقِهِ *** هلالا لهُ سَيْرٌ إلَى رُتْبَةِ البَدْر.[3]

و نراه يخصُّ السلطان المغربي أبا سالم المريني، بإحدى عشرة قصيدة مدحية، قد أودعها كلَّ نعوت المديح، التي تناولها الشعراء، ومن ذلك قوله يمدحه بالكرم .

و لَمَّا أتينا البَحْرَ يُرْهَبُ مَوْجُهُ *** ذَكَرْنَا نَدَاكَ الغَمْرَ فَاحْتُقِرَ البَحْرُ[4]

فقد رأى ابن الخطيب أنّه لمّا ذُكِرَ جُود أبا سالم أمام البحر هان البحرُ ، وذلك لكرم أبا سالم ، و جزيل عطاياه. وفي هذا مبالغة من الشاعر تجاه ممدوحه

ثم مدحه بأنَّه أمّن البلاد، وأنّهُ بالخلافةِ لحقيقٌ،كما أنَّه يُرْجَى في أيام الشَّدائد فيقول:

وَ أمَّنْـــتَ بالسِّـــلْمِ الــبِلاَدَ و أهلَهَــا * فَلاظُبَـــةٌ تُعْـــرَى ولارَوْعَـــة تَعْـــرُو.

---

* أبي عنان : عنان المتوكل على الله،أحد سلاطين بني مرين بالمغرب،ولد سنة 729،وتوفي مقتولا سنة759هـ،وكان شاعرًا فصيحَ القلمِ بليغًا.

[1] – ابن الخطيب،الديوان،ج1 ، ص 403 .

[2] – المصدر نفسه : ج2، ص 748.

[3] – المصدر نفسه : ج1 ، ص383..

[4] – المصدر نفسه: ج1 ، ص415.

وَ كنـــت حقيقًـــا بالخلاَفـــة بعْـــدهُ * على الفور ، لكن كلُّ شيءٍ لَهُ قَدْرُ.
وَ أَنْـتَ الـذِي تُـدْعَى إذا دهَـمَ الـرَّدَى * و أنْتَ الذِي تُرْجى إذا أخْلَفَ القَطْرُ. [1]

و نراه في مدْحَةٍ أخرى، وهيَ من أطول القصائد التي قالها في السلطان أبي سالم،إذْ بلغت سبعةً و ستِّينَ بيتا (67)، يستهلها بالمدح مباشرة، يُضْفي عليه بعض الصِّفات التَّقليديَّة في" تدبير الأمور"، و" الكرم"؛ الذي لا يقاربُهُ البَحرُ .

أَطَاعَ لِسَانِي فِي مَديحِكَ إحْسَانِي *** وَقَدْ لَهِجَتْ نَفْسِي بِفَتْحِ تِلِمْسَان[2]

و فيها يمدحه بالجود و الكرم :

ومَنْ قَاسَ منْكَ الجُودَ بالبِحْرِ والحَيَا *** فَقَدْ قَاسَ تَمْوِيهًا قِيَاسَ سُفْسَطَانِي[3]

ثم يُعَدّدُ ابن الخطيب فضائل "أبا سالم" عليه:

أمَوْلاَيَ حُبِّي فِي عُلاكَ وسِيلَتِي *** و لُطْفُكَ بِي دأْبًا بِحَمْدِكَ أغْرَانِي .
أيَادِيكَ لاأنْسَى عَلى بُعْدِ المَدَى *** نَعُوذُ بِكِ اللَّهُمَّ منْ شَرِّ نِسْيَان.
فَلاَ جَحْدَ ما خَوَّلْتَنِي من سَجِيَّتِي *** ولا كُفْرَ نُعْمَاكَ العميمَةِ مِنْ شَانِي[4]

أما آخر مِدَحِ ابن الخطيب في سلاطين بني مرين،كان في السلطان أبي فارس عبد العزيز المريني ،ومدائحه فيه لم تكن صادقةً ،وقد مدحه في قصيدتين،يقول في القصيدة الأولى وقد بعثها له لمَّا كان ابن الخطيب في الأندلس؛ يمهِّد لقدومه إلى المغرب.

عبدُ العَزِيز خليفةُ اللهِ الذِي *** ظَفِرَ الهُدى منْهُ بِفَوْز قِدَاحِهِ
ولذاكَ مَا أهْدَتْ عُلاَهُ هَدِيَّةً *** فَقَدْ أعْرَبَتْ عنْ بَأْسِهِ وسَمَاحِهِ.[5]

ثم يمدحه بسعيه الناجح في الخلافة، وأنَّ ألْوِيَةَ النَّصر تحتَ لوائه:

---

[1]– ابن الخطيب ، الديوان ،ج1، ص 416
[2]– المصدر نفسه: ج2، ص588 .
[3] – المصدر نفسه: ج2، ص 589.
[4] – المصدر نفسه: ج2 ،ص 592 .
[5] – المصدر نفسه : ج1، ص 249 .

لاَ زَالَ سَعْيُكَ فِي الخِلاَفةِ نَاجِحًا *** تُسْتَمْطَرُ الدُّنْيَا مَهَبَّ رِيَاحِهِ.
وَلِوَاءُ نَصرٍ يَسْتَهِلُّ غَمَامَةً غمامـــه *** تذَرُ الفُتُوحَ جُثَىً بقُضْبِ رِمَاحِهِ . [1]

أما مِدْحَتُه الثانية ، فقد كانت ثلاثة أبيات فقط قالها ابن الخطيب على البديهة:

أَمَوْلاَيَ اسْتَزِدْ بالشُّكْرِ صُنْعَا *** فَقَدْ وَعَدَ المزيدَ اللهُ بَعْدَهُ.
أبحْتَ ذِمَارَ منْ نَاوَاكَ لمَّا *** نَوَيْتَ جِهَادَهُ وقَصَدْتَ قَصْدَهُ.
وَمَا كَانَ الذِّمَارُ بِمُسْتَبَاحٍ *** وَلَكِنَّ العَزِيزَ أعزَّ عَبْدَهُ [2]

وآخر مَنْ مَدَحَهُ ابن الخطيب من ملوك المغرب هو السلطان أبو حمو موسى الزَّيَّاني، ولم يتسنَّ لابن الخطيب أن يقابله ، بل كانت مدائحه الأربعة عن طريق المراسلة،فقد كان ابن الخطيب يخشى صروف الدهر مما جعله يبعث مدائحه لهذا السلطان و معدِّدًا سجاياه و بخاصة مساعداته للأندلس بالمال، و تُعَدُّ قصيدته السينيَّة من أحسن المِدَح التي كتبها في حقه:

أَنْتَ الذِي افْتَكَّ السَّفِينَ و أَهْلَهُ *** إذ أُوسِعَتْ سُبُلَ الخَلاَصِ طُمُوسَا.
أَنْتَ الذِي أَمْدَدْتَ ثَغْرَ اللهِ *** بالصَّدَقَاتِ تُبْلِسُ كَرَّةَ إبليسا .
و أَعَنْتَ أَنْدَلُسًا بِكُلِّ سَبِيكَةٍ* *** موسومة لا تعرف التدليسا.[3]

و هذه القصيدة قد بلغ عدد أبياتها مائة و أربعة عشر بيتا(114) ، خلع فيها على السلطان أبو حمو أعظم الصفات ، وأنبل السمات، وأكرم الشيم ، حتى يُخَيَّلُ أنَّ أبا حموٍ لا يدانيه من البشر أحدٌ، فقد قال فيه :

مَنْ قَاسَ ذاتَكَ بالذَّوَاتِ فَإِنَّهُ *** جَهِلَ الوِزَانَ و أَخْطَأَ التَّقْيِيسَا[4]

---

[1] – ابن الخطيب ، الديوان ج1 ، ص 250 .

[2] – المصدر نفسه : ج1 ، ص 326 . * السبيكة : هي الفضة المصفّاة .

[3] – المصدر نفسه : ج2 ، ص 726 .

[4] – المصدر نفسه : ، ج2 ص 725.

و يمدحه فيها "بالشجاعة" و البسالة"، و أنه بدرُ الهدى إذا طلع تَبَدَّدتْ الظُّلَمُ، يعلوه الوقار، وازدان بأبَّهة الحكمة:

أسدُ الهِيَاج إذا خَطَا قُدُمًا سَطَا *** فيُخَلِّفَ الأسدُ الهِزَبرَ فَريسَا.
بَدْرُ الهُدَى يَأْبَى الضَّلالُ ضِيَاؤُهُ *** أبدًا فَيَجْلُو الظُّلْمَةَ الحِنْدِيسَا*
جَبَلُ الوَقَارِ رَسَا وأشْرَقَ و اعْتَلَى *** و سَمَا فَطَأْطَأَتِ الجِبَالُ رُؤُوسَا.
كَمْ حكمةٍ أبْدَى، وكَمْ قصْدٍ هَدَى *** للسَّالكِينَ أبَانَ منْهُ دَرِيسَا.[1]

وله قصيدة من ثلاثة عشر بيت(13)، يهنِّئُهُ باسترداده لتلمسان يقول فيها:

وَقَفَ الغَرَامُ عَلَى ثنَاكَ لِسَانِي *** رَعْيًا لِمَا أوْلَيْتَ مِنْ إحْسَانِي .
فكأنّمَا شُكْرِي لِمَا أَوْلَيْتَهُ *** شُكْرَ الرِّياضِ لعَارضِ النِّسْيَان.
الشَّمسُ قدِ انْفَرَدْتَ و هلْ يُرَى *** بينَ الوَرَى فِي مطْلَع شمْسَان[2]

و قصيدته المِيمِيَّة هيَ من أطول القصائد التي بعث بها إلى السلطان أبي حَمْوٍ، قد ضمَّنَها حِكَمًا كثيرة ، سَارَ فيها على شاكلة المتنبي، و أسبغ عليها من القرآن رداءً وكَسَاها من مخزونه الثقافي كَمًّا هائلا، ليُدَلِّلَ عن براعته، و مقدرته الشعرية ، وفيها يقول

ومَنْ مِثْلُهُ قَدْ أعْجَزَ الدَهْرُ مِثْلَهُ *** إذا ذُكِرَ العَزْمُ الصَّريحُ أو الحَزْمُ
أو الدِّين مرفوعًا على عمَدِ التُّقَى *** أو الكَلِمُ الحِكْمِيُّ يُشْفَى به الكلَمُ[3]

و يصفه بالكرم و الجود، حتى إنَّ الغيث ليخْجَلُ منه ، ومن عطاياه :

ويُخْجِلُ سُحْبَ الغيثِ،فالبَرْقُ خَجْلَةٌ *** إذا ماهَمَى فِي كَفِّهِ وابِلٌ سَجْمُ
أجَلُّ ملُوكِ الصِّيدِ ذاتًا ومُحْتَدًا *** فمَا فَوْقَهُ مَسْمًى لِمَنْ شَاءَ أنْ يَسْمُو[4]

و يصفُهُ بعدّة أوصاف :

---

[1] – ابن الخطيب ، الديوان ،ج2، ص 724 . * الحنديسا : شدة الظلمة

[2] – المصدر نفسه : ج2 ، ص 607 .

[3] – المصدر نفسه : ج2 ،ص 543 .

[4] – – المصدر نفسه :ح2 ، ص 544 .

ملئٌ بأوصافِ الإمَامِ بمثله ** ولا مثلَ مَنْ يَبْغِي الإمامةَ يَأْتَمُّ
إذا اجْتَمَعَ الإقْدَامُ والرَّأْيُ و التُّقَى ** وساعدَ سعْدٌ واسْتَقَلَّ بهِ عَزْمُ
ولاحتْ بآفَاقِ السَّمَاحِ مَخِيلةٌ ** منَ الجُودِ يَتْلُو بَرْقَهَا العارضُ السَّجْمُ[1]

و بالإضافة إلى السلاطين و الملوك الذين مدحهم ابن الخطيب نراه يمدح بعض الأمراء و الوزراء، و بعض الكتاب ، وكانت عدد المِدَحِ فيهم تسعة و عشرون مِدْحَة(29) جاءت أغلبها غير صادقة ، فقد ملأها التّصَنُّعُ و التَّكَلّفُ ، فلم يكن الاعجاب أو الحبُّ هو المحرِّكُ لها ، بقدر ماكانت الحاجة تَفْرضُ ذلك ، يقول ابن الخطيب في مدح صاحب الإنشاء بالمغرب ،الوزير أبو القاسم بن رضوَان:

إنَّمَا أنْتَ للبَريَّةِ كَهْفٌ ** وَملاذٌ فِي شدَّةٍ وَرخَاءِ
فأعنِّي و اصْرفِ لتَجْديدِ مَا ** أصْدَرْتَ وجْهَ الأماجِدِ الحُسَبَاءِ[2]

إن الوضع الذي آل إليه ابن الخطيب في أُخريات حياته- إذْ كان لاجئا بالمغرب،ينتظر العطفَ ، و المساعدة من الآخرين- كانت هي أهم المؤثرات التي أحدثت تَغْيُّرًا في خطِّ سَيرِ المَدْحِ عنده .

و مجمل القول إنّ الموضوع الرئيسي لقصائد ابن الخطيب في المدح لم تبتعد عن التقاليد الموروثة للقصيدة العربية، لافي مبانيها، ولافي معانيها، ولاحتّى في أساليبها وألفاظها ، فقد كان وفِيًّا للتَّقاليد الشعرية العربية التي ينْهَلُ من مَعِينِهَا الذي لا ينضب، ولا يشُذُّ عنْها إلا في تلك الخصائص ؛ التي تمْنَحُها البيئة، ويفرضها روح العصر،إضافة إلى الثقافة الدينية

[1] – ابن الخطيب ، الديوان،ج2، ص 546 .
[2] – المصدر نفسه ، ج2 ، ص 518 .

التي كَسَتْ قصائد ابن الخطيب المَدْحِية، فقد ضمن من القرآن و الحديث والألفاظ الشرعية المتداولة بين الفقهاء .

أمَّا القيم التي كان يُضْفِيها على ممدوحيه هي القيم المعروفة من كرم و شجاعة وفصاحة و الذَّب عن الدِّين، و الذَّود عن حِيَاضِهِ ، ومن خلال الأمثلة التي أوردناها نرى أن ابن الخطيب في قصائده كان يسير في الطريق المعَبَّد الذي سلكه الشعراء السالفون، مستعيرا صُوَرَهم و تعابيرَهُم ، و توظيفهم للعنصر الديني و الثّقافِي.

- **الخاتمة:**

اعتنى ابن الخطيب بتحسين انتهاءاتِ قصائده كاِعتنائه بمطالعهما، مستجيبًا في ذلك لتوجيهات النُّقاد الذين اشترطوا تضمين خواتيم القصائد حكمة بالغة، أو مثلا سائرًا، أو تشبيهًا، وحُسْنُ الانتهاء أن يكون البيت الأخير يَفْهَمُ منه السَّامع أنّه آخرُ القصيدة قبل أن يُخْبِر بذلك.[1]

ومن الحُسْنِ في الختام « أن يشتمل على الثناء على الله والصَّلاة والسَّلام على نبيِّه، أو أن يكون مُشْعرًا فكريًا بانتهاء الحديث على الموضوع ، وللبلغاء فنونٌ كثيرةٌ يختمون بها شعرَهُم ونثْرَهُم، ويكون آخر كلامِهِم دالاً على أنَّهم قد وصلوا فعلاً إلى آخر ما يقصدون من قول»[2] ، ولمَّا كان المقطع آخر بيت القصيدة، ومِصْدَاقًا لقول **رسول الله صلَّى الله عليه**

[1]– ينظر: شمس الدين ابن جابر الأندلسي، الحلة السَّيرى في مدح خير الورى، تحقيق علي أبو زيد، علم الكتب بيروت، لبنان، ط2، 1985، ص155.

[2]– عبدالرحمان حبنّكة الميداني، البلاغة العربية (أسسها وعلومها، وفنونها) دار القلم دمشق، سوريا، ط1، 1996،ج2 .564

وسلَّم: «إنَّما الأعمال بالخواتيم»[1] ، اشترطوا أن يكون الاختتام في كل غرض بما يناسبه، سارًّا في المديح والتَّهانِي، وحزينًا في الرِّثاء والتَّعازي.[2]

وعلى هذه الشروط التي وضعها النُّقاد دَرَجَ ابن الخطيب ،وبرع في ختم قصائده بشكل يتلاءَمُ وموضوع القصيدة، فنراه في إحدى قصائده يقول مُختتما، مُعَلّلا نفسَهُ بالصَّبر على أقدار الله التي تجري على عباده ثم يُرسل حكمة بليغة فيقول:

لجريْتُ طَوْعَ الحُزن دُونَ نِهايةِ *** وذهبتُ من خَلْع التّصبّرُ مذهبًا.
والصّبر أولى ما اسْتَكَانَ له الفَتَى *** رَغْمًا وحقُّ العَبْدِ أنْ يتأدَّبا.
واذا اعْتَمَدْتَ الله يومًا مَفْزعًا *** لم تُلْفِ منه سِوَى إليهِ، المَهْرَبَا. [3]

ونراه في قصيدة أخرى يُهنّئ الأمير ولد السُّلطان قيس **بالحِذْقَة*** وذلك بعد أن ابتدأ بالصَّلاة والسلام على الرسّول صلى الله عليه وسلم ثم الخلفاء الأربعة الأنصار الذين هم نشب السُّلطان وابنه "قيس"، ليختتم القصيدة بخير مختتم فيقول:

بأي شُكْر نُوفّى كُنْهَ نِعْمَتِهِ *** لو أنَّ سَحْبَانَ أو قُسًّا لها انْتَدَبَا.
وكأفأ الله أشْيَاخِي بِرَحْمَتِهِ *** ومن أعَانَ ومِنْ أمْلَى ومَنَ كَتَبَا.
والحَمْدُ للهِ ختْمًا بَعْدَ مُفْتَتَح *** مَا البَارِقُ التَاحَ أوْ مَا العارضُ انْسَكبَا[4].

ولمَّا أوقع جيْشُ السُّلطان أبو الحجَّاج يوسف الهزيمةَ بجيش الرُّوم ،حبَّر ابن الخطيب؛ قصيدةً يُهنّئ فيها على البديهة؛ واصفًا خبر النَّصر بالبُشرى، وأنَّ دين الله قد عزَّ

---

[1] – أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، القضاء والقدر، تحقيق : محمد بن عبد الله، مكتبة العبيكان، الرياض، السعودية ط1، 2000، ص 158 .

[2] – ينظر: حسين بكار، بناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء النقد الحديث، ص229.

[3] – ابن الخطيب، الديوان، ج1، ص108.

* الحِذْقة : الاحتفال بإتمام الصبي قراءة القرآن أو جزء منه .

[4] – المصدر نفسه : ج1، ص 119–120.

جارُه، وأنّ الحَقَّ ظهر على يد السُّلطان وأنَّه دوّخ أساطين الكُفْر، وذلك لأنَّه استعان بالله وما يُخْذَلُ من كان الله دليله يقول:

فمـا ظَـلَّ مـنْ كـانَ الإلَـهُ دَليلُـهُ *** ومـا ذلَّ مـنْ حُسْـنُ اليَقـين سِـلاَحُهُ.
فهُنِّيتَـهُ صُـنْعًا جَمِـيلاً ومَـوْرِدًا *** مـن النَّصْـرِ يَنْـدى فِـي القُلُـوبِ قَرَاحُـهُ.
ودُمْـتَ عَزيـزَ الجَـار سـيْفُكَ فَاصِـلٌ *** وسَـيْبُكَ ممنـوحُ النّـوالِ مُبَاحُـهُ[1] .

لِيَخْتِمَهَا بأنَّه مِنْ فَرْطِ حُبّه للسُّلطان أنَّ هاتِهِ الأبيات على قالها على البديهة :

ودُونَكَهَـا مِنِّـي إليـكَ بدِيهَـةً *** نتيجـةَ حـبٍّ طَـابَ فِيـكَ صُـرَاحُه.[2]

وممّا قاله في حقِّ السُّلطان أمير المسلمين أبي الحجَّاج بأسلوب حزين وافق فيه شرط النُّقاد بأن تكون الخواتيم موافقة لما جاء في الموضوع الرئيسي للقصيدة ، قد ضمنها دعاءً في خاتمتها.

تَغَمَّـدْ بِسِـتْرِ العَفْـوِ منْـكَ ذُنُوبَنَـا ** فلسْـنَا نُرَجِّـي غيـرَ عفْـوِكَ مـنْ سِـتْرِ.
وخُـصّ أميـرَ المسـلمينَ بِرَحْمَـةٍ ** تُبَوِّئُـهُ دارَ المُقَامَـةِ والأجْـرِ.
فمَـا عنـدْكَ اللَّهُـمَّ خيْـرٌ ثَوابُـه ** وأبْقَـى ودنْيَـا المَـرْءِ خُدْعَـةُ مغْتَـرِّ.
وصـلَّ علـى الهـادي المُشَـفّع مـا بَـدَتْ ** سِماتُ الصَّبَاحِ الطَّلْقِ فِي مَطْلَعِ الفَجْرِ.[3]

ونلاحظ من خلال هذه الخواتيم أنّ الشاعر كان موفقا في ختم قصائده، حيث جعل القارئ يعلم أنّ القصيدة انتهتْ، ولم يكن هناك قطعٌ أو بتْرٌ للقصيدة ، وكذلك جاءت خواتيم

[1] – ابن الخطيب ، الديوان، ج1 ، ص 221
[2] – المصدر نفسه : ج1، ص 221.
[3] – المصدر نفسه : ،ج1، ص399.

الشاعر مناسبةً للموضوعات التي تناولها في شعره، ولم يخرجْ في خاتمته عن الموضوع الذي تناوله في صلب القصيدة، بل قدْ جاءت مكمِّلةً وخاتمةً لها.

ومجمل القول إنّ قصائد ابن الخطيب قد سارت وفق ما رسمه النُّقاد؛ من الابتداء بالمطلع فالمقدمة فالتَّخلص لينهي قصائده بالخاتمة، فلا يكاد يختلف هذا الهيكل من حيث الأجزاء والخصائص عن هيكل قصائد شعراء الشرق، إلاَّ أنَّه قد ينفرد بخصائص أخرى نتيجة لتأثير البيئة الأندلسية فيه.

- القصيدة البسيطة:

جاءت الكثير من قصائد ابن الخطيب المدحية في شكل قصائد بسيطة **[** نعني بالقصيدة البسيطة؛ تلك التي تعتمد على المدخل المباشِر الى الموضوع الرئيسي **]** ، حيث أسقط مقدمة القصيدة، وما يلازمها من عناصرها بادئا بموضوعه في الوهلة الأولى، يقول ابن رشيق في هذا الشأن « من الشعراء من لا يجعل من النسيب، بل تهجَّم على ما يريده مكافحةً ، ويتناوله مصافحةً.... »[1]

ومن القصائد التي استهلها ابن الخطيب بالمدح المباشر قوله يمدح أبا سالم وذلك غداة فتح مدينة تلمسان :

أطاع لساني في مديحي إحساني *** وقد لهجت نفسي بفتح تلمسان.[2]

و أيضا من القصائد التي استهلها بالمدح بدأً من البيت الأول للقصيدة ما خاطب به السلطان أبا الحجاج :

سُعُودُكَ لامَا تَدَّعِيهِ الكواكبُ *** وجُودُكَ فينَا لا السَّحَابُ السَّوَاكِبُ.

[1] – ابن رشيق، العمدة ، ج1، ص 231.

[2] – ابن الخطيب، الديوان، ج2،ص 588.

يغصُّ الغَمَامُ الجَوْنُ* يومَ انْسِكَابِهِ *** إذا صَدَرَتْ عَنْ راحتَيْكَ المَوَاكِبُ .[1]

و نراه في قصيدة أخرى يمدح السلطان اسماعيل بدون مقدمة ولا تمهيد :

مَــوْلايَ يَــا خيــرَ ملــوكِ الــوَرَى *** ونخْبَــــةَ النَّصْــــر وأربابِــــهِ[2]

و يقول مهنئا السلطان أبا زيـان :

يا ابنَ الخلائفِ يا سمِيَّ "مُحَمَّدٍ" *** يا من عُلاه ليس يَحْصُر حاصر
أبشر فأنت مُجَدّدُ المُلك الذي *** لولاك أصبح وهو رَسْم دَاثِرُ
ألقتْ إليكَ يدُ الخلافة أمرَها *** إذا كنت أنت لها الوليُّ الناصِرُ [3]

و يفتتح ابن الخطيب قصيدة أخرى مادحا السلطان الغني بالله دون أن يُقَدِّم بين يَدَيْ حديثه مقدماتٍ ، فيبدَأُ مباشرة بالغرض الأساسي.

هنيئًا بمَا خُوِّلْتَ منْ رفْعَةِ الشَّان *** و إنْ كَرِهَ البَاغِي و إنْ رَغِمَ الشَّانِي*
و أنْ خَصَّكَ الرَّحْمَانُ جلَّ جَلالُهُ *** بمعجــــزةٍ منْسُــــوبَةٍ لسُــــلَيْمَانِ[4]

و يمكن القول أنَّ ابن الخطيب قد استجاب في مدائحه للشَّكْلِ الفَنِّي للقصيدة العربية وجاءت مدائحه على نمطين : مركبة متعددة الموضوعات اهتمَّ فيها بأهم أجزاء القصيدة التقليدية : من مقدمة و حسن تخلص إلى المدح و خاتمة ، غير أنه أسقط بعض أنواع الرحلة، كوصف الراحلة و مشاهد الطريق للوصول إلى الممدوح، هذه العناصر التي لا تتلائم مع روح العصر و البيئة التي يعيشها ، أما مقدمات قصائده فقد غلب عليها المقدمة الطلليَةُ

---

[1] – ابن الخطيب ، الديوان ،ج1، ص 120.

* الجَوْنُ: هوعند أهل اللُّغة الأسود .

[2] – المصدر نفسه : ج1، ص 134.

[3] – المصدر نفسه : ج2 ،ص 381.

* الشاني: المبغض الكاره .

[4] – المصدر نفسه : ج2 ، ص 598.

على باقي المقدمات الأخرى، وذلك للتوافق والتناسب الذي نجده بينها وبين الموضوع الرئيسي ألا وهو المدح.

وعلى العموم فإن ابن الخطيب في مديحه سار على نهج أسلافه الشعراء في بناء قصائدهم إما يَلِجَ إلى الغرض مباشرةً دون مقدماتٍ، وإما أنْ يُمَهِّدَ لذلك بممهِّدات تتوافق والمقام الذي يقتضيه الحال.

الفصل الثاني

الفصل الثاني : الدراسة الفنية

أوّلاً – اللُّغةُ الشِّعرية

أ–المعجم الديني(القرآن والحديث النبوي) .

ب– المعجم الشعري .

ثانيا– الصُّورةُ الشِّعْريَّة .

1– الصُّورة البديعيَّة .

أ– التصريع .

ب– الجناس .

ج– الطباق .

2– الصورة البيانيّة .

أ– التشبيه .

ب– الاستعارة .

ج– الكناية .

ثالثا– الوزن والقافية

أوّلاً – المعجم الشّعري:

تُعدَّ اللُّغة عُنصرًا أساسيا في تكوين القصيدة، فهي وسيلة الشَّاعر في التعبير والإبداع، وهي موسيقاه وألوانه، ومادته الخام التي يخلق منها كائنًا ينبض بالحياة والحركة، ويحمل في الملامح والسّمات ما يميزه عن غيره[1]، حيث إنَّ اللّغة تعبّر والأسلوب يُبرز عن معانٍ ودلالات، لذا يلجأ الشُّعراء في التعبير عن تجاربهم الشّعرية استعمالَ الألفاظ ،وصياغتها في أحسن أسلوب، ولأهمية اللّغة وقيمة الألفاظ في تشكيل الصُّورة الأدبية نجد النُّقاد قد أوْلَوْها عناية خاصة، وبسطوا الكلام فيها ،فقد جعل العسكري مدار البلاغة على تحسين اللفظ، لأنَّه إذا كانت الألفاظ منتقاةً حَسُنَ الكلام.[2]

وكان النُّقاد المحدثون أيضًا يولون عناية باللُّغة وأهميتها، فاللُّغة عندهم هي «الظَّاهرة الأولى في كل عملٍ فنِّي يَستخْدِمُ الكلمة أداةً للتّعبير، هي أوَّل شيء يصادفنا وهي النافذة التي من خلالها نطلُّ، ومن خلالها نتنسَّم، هي المفتاح الذّهبي الصغير الذي يفتح كل الأبواب، ومن ثم كان الشعر هو الوسيلة الوحيدة لغنى اللّغة، وغنى الحياة على السَّواء ...»[3] ، واللُّغة الشعرية تختلف اختلافًا بَيِّنًا عن اللُّغة في الحياة اليومية فالشاعر حين يستخدمها فهو ينفي عنها قيمَتَها العادية المعهودة، ويُكْسِبُها قيَمًا جديدة وهو يحاول بشتى الوسائل أن يَبْعُد بها عن ميدان النثر، وعن قيمتها فيه، فينظمها بطريقةٍ خاصةٍ تختلف عن الاستعمال العادي لها.[4]

---

[1]– ينظر: فوزي عيسى، الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، دار الوفاء، الاسكندرية، مصر، ط1، 2008 ص237.

[2]– ينظر: أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص58.

[3]– عز الدين اسماعيل، الشعر العربي المعاصر، قضاياه وظاهره الفنية والمعنوية، دار الفكر العربي، القاهرة مصر ط3، 1978، ص173.

[4]– ينظر: عزالدين اسماعيل، الأسس الجمالية في النقد العربي عرض وتفسير ومقارنه، دار الفكر العربي،القاهرة،مصر، د،ط، 1992، ص 297.

و الشاعر الحَذِقِ هو من ينتقي أرقى الألفاظ وأفضلها، حتى تساعده في أداء المعنى وإتْمَامه، فلا يصِحُّ أن يكون المعنى صائبًا، واللفظ فاترا ركيكا، وفي ذلك مدعاة إلى اسْتِهْجانه وذمهِ ورفضه.[1] إذ يتوجَّب عليه أن يُحْسِنَ كلامه وذلك بحسن سلاسته وسهولته، وأن يتخيّر لفظه ويُجِيدَ معناه، ويجَوِّد مطلعه.[2]

وإذا نظرنا إلى شعر ابن الخطيب؛ نجده موافقًا لما ذهب إليه النُّقاد واشترطوه،فلغَتُه تتَّصف بالسلاسة والسُّهولة، والتلاؤم بين اللفظ المعنى ،وابتعد عن الألفاظ الحوشية والسُّوقية المبتذلة، وأجاد في استعمالها بحيث جاءت معبرةً عن تجربته الشعرية.

وبالرغم من سلاسة الألفاظ ،ووضوحها لدى شاعرنا في قصائده، خاصة المدحية منها، إلاَّ أننا نجد بعض الألفاظ تحتاج في فهمها الرجوعَ إلى المعاجم اللّغوية،وهي قليلة إذا ما قورنت بالألفاظ الواضحة، وذلك مثل «التَّأْي، الوضَمُ ،الشَّثَنُ الرَّأْلُ ».[3]

وقد اعتنى ابن الخطيب بأن يجعل لكل غرضٍ مايليق به من ألفاظٍ، وهذا يوافق ما قاله النُّقاد «أنّ لكلِّ خطابٍ معجَمُهُ الخاصّ به، إذ للشعر الصُّوفي معجمه، والمدحي معجمه ... فالمعجم لهذا وسيلة للتَّمييز بين أنواع الخطاب وبين لغات الشعراء والعصور».[4]

ومن خلال قصائده المدحية نراه قد استخدم ألفاظا قام بتكرارها ألا هي:

1-**ألفاظ الحرب:** وما يتعلق بها من خيل وسلاح ...

---

[1]- ينظر: أبو الهلال العسكري، الصناعتين،ص 59.

[2]- ينظر: المصدر نفسه، ص 55.

[3]- ابن الخطيب ،الديوان، ينظر الصفحات على الترتيب، ج2،(496، 533،588،649 .)

[4]- محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري، استراتيجية التناص، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 1992، ص58.

والأمثلة على هذه الألفاظ كثيرة في قصائد ابن الخطيب، فنراه يمدح السُّلطان أبا الحجاج بقوله:

مُثِيرُ رِيَاحِ العَزْمِ فِي حَوْمَةِ الوَغَى *** ومُخْتَطِفِ الأبْطَالِ يَوْمَ نِزَالِهِ.[1]

فكلمة الوغى ، وكلمة النزال من ضمن الحقل الدلالي لكلمة الحرب.

وفي قصيدة أخرى نرى ابن الخطيب يمدح فيها أبا الحجّاج، حيث يوظف فيها بشكل مكثف لألفاظ الحرب فيستهلها بقوله:

السَّعْدُ جُنْدُكَ والقَضَاءُ دَلِيلُ *** واللهُ بالنَّصْرِ العَزِيزِ كَفِيلُ.[2]

ومنها أيضا قوله:

في عَسْكَرٍ لَجِبٍ كأنَّ جُمُوعَهُ *** فَوقَ الوِهَادِ، إذا زَحَفْنَ سُيولُ.
كالبَحْرِ إلاَّ أنَّهُنَّ كَتَائِبٌ *** والريحُ إلاَّ أنهن خُيُولُ.[3]

وفيها نذكر الرماح والسيوف فيقول:

ثُمَّ انْثَنَيْتَ وبالرّماحِ تَقَصُّدٌ *** ممَّا غَزَوْتَ وللسُّيوفِ فُلُولٌ.
لا يَغْرَرَنَّ "الرُّومَ" فِي إمْلاَئِهَا *** قَدَرٌ، فَأيَّام الحُروبِ تَدُولُ.[4]

وقد توسَّع ابن الخطيب في ذكْرِهِ لألفاظ الحرب؛ لتشمل الجيش وكل ما يتعلق به (كاللّهام، والخميس، والجحفل، والكتائب،...)

ولفظتا الجيش والكتائب؛ هي الأكثر استخدامًا في قصائده، ومن الأمثلة على لفظة الجيش ما جاء في مدحه "لأبي الحجاج" فيقول:

---

[1]– ابن الخطيب، الديوان، ج2، ص 484.
[2] – المصدر نفسه :ج2 ، ص 486 .
[3]– المصدر نفسه :ج2، ص 487.
[4]– المصدر نفسه :ج2، ص 484.

فَاهْزُزْ بِرُعْبِكَ قَبْلَ الجَيْشِ ماجَمَعُوا ** واضْرِبْ بسَعْدِكَ قبْلَ الصَّارِمِ الذَّلِقِ.[1]

أمَّا لفظة "الكتائب" فجاءت على الصيغتين التاليتين: كتائب وكتيبة، وقد وردت في مواطن كثيرة من شعره منها ما جاء في مدح أبي الحجَّاج:

وبعثتَ إلى أرْضِ العِدَى بكَتِيبَةٍ *** تَكَادُ بها شَمْسُ الظَّهيرَةِ تَكْسِفُ.[2]

والمُتَتَبِّعُ لقصائد ابن الخطيب، يرى أنّه قد ضمّنها –خاصة قصائده المدحية– ألفاظ الحرب وما يندرج تحتها كالسلاح، والخيل، والجيش.

2– **ألفاظ أخرى** : وقد استعمل فيه ابن الخطيب ألفاظًا كرّرها كثيرًا

(كالشمس، البدر، النّجم، السُّعود، الشهب، السماء، القمر ...)

وهي ألفاظ مناسبة لقصائد خاصة المدحية منها.

فلفظ الشمس يُضْفِي على الممدوح نوعًا من السُّمو الرّفعة، والتفرّد، يقول :

الشَّمْسُ أنتَ قدِ انْفَرَدَتْ وهلْ يُرَى *** بَيْنَ الورَى فِي مطْلَعِ شَمْسَانِ؟.[3]

ويقول في ممدوحه أيضًا:

مُتَجَسِّدًا منْ جَوْهَرِ النُّورِ الذِي *** لم تُرْمَ يَومًا شَمْسُهُ بغُرُوبِ.[4]

وقد استعملها أيضًا في وصف الخمر والغزل فقال:

---

[1] – ابن الخطيب ،الديوان، ج2، ص692.

[2] – المصدر نفسه: ج2، ص 671 .

[3] – المصدر نفسه: ج2، ص607 .

[4] – المصدر نفسه: ج1، ص 130.

نَبِّــهْ نَــدِيمَكَ لِلصَّــبُوح وهَاتِهَــا *** كالشَّـمْسِ تُشْـرقُ مـنْ جَمِيـع جِهَاتِهـا. [1]

وقوله:

شُمُوسًــا كلَّمَــا غَرَبــتْ وَلاَحَــتْ *** عَلَـىَ الأَفْـوَاهِ تَطْلُـعُ فِـي الخُـدُودِ. [2]

أمَّا لفظة البدر فقد استعمله في كثير من المواطن منها قوله في المدح:

وَكَفَــىَ بِــإِبْرَاهِيمَ بَــدْرَ خِلاَفَــةٍ *** تَعْنُــو لِغُرَّتِــهِ البُــدُورُ الكُمَّــلُ. [3]

أمَّا لفظتي النجم ، والشهب فهي كثيرة يستحيل حصرها، وإنّما نورد مثالاً يقول في مدح بني زيَّان:

وانَّ بَنِــى زَيَّــان فِــى أفُــقِ العُــلاَ *** لأَنْجُــمُ هَــدْي كلّمَــا أفَــلَ الــنَّجْمُ. [4]

وقوله:

فَمِـنْ سُـحُبٍ لاَحَـتْ بِهَـا شُـهُبُ القَنَـا *** وَمِـنْ كُتُـبٍ بِـيضٍ بَـدَتْ فَـوقَ كُثْبَـان. [5]

لقد وظف الشاعر في لغتة الشعرية نوعين من الألفاظ ،وهما ألفاظ الحرب، وما تعلق بها ، وألفاظ أخرى،و كان حظورها بشكل مكثف في القصائد المدحية، حيث قام ابن الخطيب باستعمالها وتوظيفها بطرق مختلفة وفق حاجة المعنى لها ، والمقام الذي يفرض ذلك .

[1] – ابن الخطيب، الديوان ، ج1، 169 .

[2] – المصدر نفسه : ج1 ، ص 282.

[3] – المصدر نفسه : ج1، ص 499 .

[4] – المصدر نفسه : ج2، ص543 .

[5] – المصدر نفسه : ج2،ص 590 .

أ- المعجم الديني: (القرآن والحديث النّبوي)

إنَّ الدارس للشعر الأندلسي يلحظ بشكل جلّي أنّ القرآن الكريم كان مصدرًا أساسيًا من المصادر التي عكف عليها شعراء الأندلس، ورافدًا مهمًا في ثقافتهم، وليس هذا غريبًا؛ لأنَّ الشعر الأندلسي لا ينفصل عن التّقاليد المورثة للشعر العربي عمومًا فهو يجري في الاتجاه نفسه، ويَشِيحُ فيه هذا التّيار الذي يَصِلُ الماضي بالحَاضِرِ.[1]

« وتمثّل تأثّرهم الذي له حظ كبير في أشعارهم بتضمين الآيات القرآنية حينًا والاكتفاء بمعناها مع تصّرف في اللفظ حينًا آخر، وهو مظهر من مظاهر التَّأثر بالرُّوح القرآني»[2] ، كما أنّه اتَّخذوه وسيلة لتجميل الشعر وتحسينه، يشير ابن سهل الاشبيلي إلى ذلك بقوله:

كَالبَيْتِ كَانَ مِنَ القَصِيدَةِ بَيْتُهَا *** وازْدَادَ حُسْنًا حِينَ جَاءَ مُضَمَّنًا [3]

وكان لسان الدّين من الشعراء الذين قرؤوا وتَعلَّموا في صباهم القرآن ، وعلومه من حديث وفقه ،وغير ذلك من علوم الدِّين، لذا فلا عجب أن نجد ديوانه يَحْفِلُ بِكَمّ هائلٍ من الموروث الديني، وخاصة قصائده المدحيّة التي ضمَّنها تراكيب من القرآن،وأخرى من الحديث النّبوي الشَّريف، و قد سار على نمطين، إمّا تضمينًا بشكل مباشر، أوغير مباشر، وتعددت تضميناته، حيث يوظف مخزونه الديني سواء كان ذلك المخزون قرآنا أوحديثا نبويا على حسب مايقتضيه الموقف ، ونورد على ذلك أمثلةً منها قوله في مدح السلطان أبي الحجّاج يوسف:

---

[1] – ينظر: محمد شهاب العاني، أثر القرآن الكريم في الشعر الأندلسي (من الفتح وحتى سقوط الخلافة) دار الشؤون العامة، بغداد، العراق، ط1، 2002، ص14.

[2] – إمحمد بن لخضر فورار، الشعر السياسي في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري،مذكرة لنيل درجة الدكتوراه في الأدب العربي،اشراف ربعي بن سلامة، تخصص أدب عربي قديم ،كلية الآداب واللغات ،قسم اللغة العربية وآدابها،جامعة منتوري قسنطينة 2004 ، 2005، ص 233 .

[3] – ينظر: فوزي عيسى، الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، ص41.

ونَادَى لِسَانُ الفَتْحِ فِي عَرَصَاتِهِمْ *** كَذَلِكَ مَكَّنّا لِيُوسُفَ فِي الأرضِ.[1]

فنرى أن الشطر الثاني من البيت مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[2] ، وهي من الموافقات التي خدمت ابن الخطيب، حيث شبَّهَ السُّلطان يوسف باسم **سيدنا يوسف عليه السَّلام**، ليّجِلَّ بذلك السُّلطان.

وفي أبيات أخرى نراه قد ضمّن آية في شطر البيت الثاني فيقول:

لَوْ بَدَا لِلْحُورِ يَوْمًا وجْهُهُ *** قُلْنَ جلَّ اللهُ **مَا هَذَا بَشَرًا** [3]

وذلك ليزيد من رفعة ممدوحه،فقد وظف قوله ماهذا بشرا، ليصفه بأوصاف الملائكة من الحسن والجمال مستوحيا تعبيره من قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾.[4] ، وقال قصيدة يمدح بها الغني بالله، يُصدّرها بذكر قصَّةِ سيدنا **سليمان عليه السَّلام** مع الجن، وما اختصَّه الله بالملك العظيم الذي آتاه الله له، ولم يؤته لأحد من العالمين فيذكر القصة بتمامها، إلاَّ أنَّه يُغيِّر في لفظها ليوافق المقام :

أنْ خَصَّكَ الرَّحمان جلَّ جلالُهُ *** بِمُعْجِزةٍ مَنْسُوبةٍ لِسُلَيْمَان.
أغَارَ عَلَى كُرْسِيّهِ بَعْضُ جِنّهِ *** فألْقَتْ لَهُ الدُّنْيَا مَقَالِدَ إذْعَان.
فَلمَّا رَآهَا فِتْنَةً خَرَّ سَاجِدًا *** وقَالَ إلَهِي: أُمْنُنْ عَليَّ بِغُفْرَان
وهَبْ لِي مُلكًا بَعْدَهَا لَيْسَ يَنْبَغِي *** تَقَلُّدُه بَعْدِي لاَ إنْسٌ ولاَ جَـــــــــانِ.
فَآتَاهُ لَمَّا أَنْ أَجَابَ دُعَـاءَهُ *** مِنَ العِزِّ مَا لَمْ يُؤْتِ يَومًا لإنْسَان.[5]

---

[1]– ابن الخطيب ، الديوان ، ج2، ص 638 .

[2] – سورة يوسف: الآية 21.

[3] – ابن الخطيب، الديوان، ج1، ص393.

[4] – سورة يوسف: الآية 31.

[5] – ابن الخطيب، الديوان، ج2، ص598.

وهو في هذا يشير إلى قوله تعالى:﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ جَسَدٗا ثُمَّ أَنَابَ ٣٤ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ.....﴾.[1]

ونراه في قصيدة أخرى يهنئ السُّلطان أبا الحجّاج يُضمنَّها جزء من آية فيقول:

وَاللهِ مَا تُغْنِى ومَا تَنْفَعُ الرُّقَى *** وهَارُوتُهَا فِى عُقْدَةِ السِّحْر نَافِثُ. [2]

فقد استمد كلمة "هاروت" من قوله تعالى﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ ».[3]

أمَّا الصيغ غير مباشرة للتضمين، والاقتباس من القرآن، فنجدها بكثرة في شعره، وهو غالبٌ في المدح، فهو يأتي بالآية، ويُغَيِّرُ في التّركيب لتوافق والموقف الذي استحضرها من أجله فمثلاً قولهُ:

وهَلْ مِنَّةٌ تُرْضي إذَا كَلَّتِ القوى *** وَبَانَ اشْتِعَالُ الرَّأسِ أَوْ وَهَنَ العَظْمُ[4]

فقد أخذها من قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ٤ ﴾[5] ، حيث اعتمد على التقديم، والتأخير لتتوافق مع التركيب الشعري.

---

[1]– سورة ص، الآية: 34 وما بعدها .

[2] – ابن الخطيب، الديوان، ج1، ص189.

[3] – سورة البقرة: الآية 101.

[4] – ابن الخطيب، الديوان، ج2، ص547.

[5] – سورة مريم: الآية 4.

إلى جانب اقتباس ابن الخطيب من القرآن الكريم فهو كذلك يستوحي من الحديث النبوي استيحاءً واعيًا، نابعًا من اهتمامه الكبير به، فمثلا قوله:

ظَلّلْتُهَا مِنَ الجُفُونِ سُيُوفُ *** جَنَّةُ الخُلْدِ تَحْتَ ظِلاَلِ السُّيُوفِ .[1]

فهو يشير إلى حديثه ﷺ: «واعْلَمُوا أنَّ الجَنَّةَ تَحْتَ ظِلاَلِ السُّيوفِ».[2]

ويقول مُضمنًا حديثًا في الشطر الثاني:

ولي في دعائك ظَنٌّ جميلُ *** وكُلٌّ اِمْرِئ فَلَهُ مَا نَوَىَ[3]

فيه إشارة إلى حديثه ﷺ، إذ يقول: « إنَّما الأعمال بالنيّات، وإنما لكل امرئ ما نوى».[4]

ويقول أيضا مضمنا لحديث نبوي:

مَطْلُ الغَنِيِّ ظُلْمٌ فَفِيمَ ظَلَمْتَنِي *** وَلَوَيْتَ دَيْنِي عَنْ وُجُودِ يَسَارِ [5]

هو بذلك يشير بقوله : مطل الغني ظُلْمٌ، إلى الحديث الشريف: « مَطْلُ الغَنِيِّ ظُلْمٌ، وإذا أُتْبِع أَحَدَكُمْ على مليءٍ فَلْيَتَّبِعْ»[6] ، والمَطْلُ: منع قضاء ما يستحق أداؤُهُ.

من خلال هذه الأمثلة التي أوردناها حول تضمين ابن الخطيب قصائده من القرآن، والحديث النبوي، يظهر مدى تأثره الكبير بهما، حيث لا تكاد تخلو قصيدة أو مقطوعة في ديوانه من أثر المعاني الدينية، وهذا يرجع إلى البيئة الأندلسية التي نشأ فيها

---

[1] – ابن الخطيب، الديوان، ج2، ص681.

[2] – عبد الله بن أبي شيبة ، المصنَّف في الأحاديث والآثار، تحقيق كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض السعودية، ط1، 1409 هـ، ج4، ص224.

[3] – ابن الخطيب، الديوان، ج2، ص760.

[4] – محمد ابن اسماعيل البخاري، صحيح البخاري، تحقيق محمد زهير بن ناصر، دار طوق النجاة، دمشق، سوريا ط1، 1422 هـ، ج1، ص6.

[5] – ابن الخطيب، الدّيوان، ج1، ص368.

[6] – مسلم بن الحجّاج، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان (د ت)،(د ط)، ج3، ص1197.

فهي بيئة اسلامية ،تنهل من معين لا ينضب ،ذلك المعين هو القرآن والحديث النبوي الشَّريف.

ب- المعجم الشعري:

يعتبر استلهام الموروث الشعري عادة قد جرى عليه الشعراء الأندلسيين على اختلاف وجهاتهم، وعلى تنوع مشاربهم، حيث راحوا ينهلون من الشعراء الذين سبقوهم،«غير أنَّ ذلك لا يعني الاحتذاء، والتَّقليد بمعناهما المعروف دائمًا، بل يدلُّ على الرَّغبة في الاستفادة من هذا الموروث ؛الذي يمثل عنصرًا أساسيًا في تكوينهم».[1]

ولقد مس هذا التَّأثر بالشعر لسان الدين ابن الخطيب، بأنّ وظّف مقرءوه الثقافي،والأدبي في قصائده، وأكثرُ ما نَجِدُ هو تأثّرهُ بشاعرِ الحكمة المتنبي، ولقد وازن في تضمينه ما بين المباشرة، والاشارة، فنجده يوظف شطرًا بأكمله كقوله:

وَمَنْ شَأنُهُ واللهُ يرفُعُ شَأْنَهُ *** عَفَافٌ وَاِقْدَامٌ وحَزْمٌ و نَائِلُ [2]

فنرى أنّ الشطر الثاني قد اقتبسه من أبي العلاء المعري إذ يقول:

ألاَ فِي سَبِيلِ المَجْدِ مَا أنَا فَاعِلُ *** عَفَافٌ واِقْدَامٌ وحَزْمٌ و نَائِلُ[3]

وفي قصيدة يمدح بها الرئيس "عامر بن محمد بن علي" كبير الوطن المراكشي" قد حذا فيها حذو الشَّاعر الجاهلي طَرَفة بن العبد، حيث ضمَّن فيها بيته المشهور:

سَتبْدِي لَكَ الأيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلاً *** ويَأْتِيكَ بالأخْبَارِ مَنْ لَّمْ تُزَوِّدِ[4]

فابن الخطيب قد أخذ الشطر الثاني وصاغه فيقول:

---

[1] – فورار امحمد، الشعر السياسي في الأندلس ، ص 239.

[2] – ابن الخطيب، الديوان، ج2، ص 516.

[3] – أبو العلاء المعري، سقط الزند، دار صادر، بيروت، لبنان، (د،ط)، 1958، ص193.

[4] – طرفة بن العبد، الديوان، تحقيق مهدي محمد بن ناصر، دار الكتب بالعلمية، بيروت، لبنان، الطبعة 3، 2002 ص29.

وتَحْتَمِلُ الرُّكبانُ طِيبَ حَدِيثِه *** ويَأْتِيكَ بالأَخْبَارِ مَنْ لَّمْ تُزَوِّدِ[1]

ونجده أيضًا يضمن بيتًا للفرزدق حين قال يمدح ،ويُعرّف ب:زين العابدين:

مَا قَالَ لاَ قَطُّ إلاَّ فِي تَشَهُّدِهِ *** لَوْلاَ التَّشَهُّدُ كَانَتْ لاَؤُهُ نَعَمُ[2]

فقد أخذه ابن الخطيب وغيَّر في ترتيب المفردات في معرض مدحه ينبي عن اغترافه الكبير من الشعر القديم :

لَوْلاَ التَّشَهُّدُ والتِّرْدَادُ مِنْكَ لَهُ *** لَمْ يُسْمَع النَّاسُ يَوْمًا مِنْ لِّسَانِكَ لاَ.[3]

ويُضّمن للمتنبي قولَه المشهور في سيف الدولة الحمداني ليصف ممدوحه بالرفعة وجلالة القدر :

وَأَقْبَلَ فِي البِّسَاطِ فَمَا دَرَى *** إلى البَحْر يَسْعَى أَمْ إِلَى البَدْر يرتقي[4]

حيث يقول ابن الخطيب:

فأَقْبَلَ لا يَدْري إِلَى النَّجْمِ يَرْتَقِي *** أَمْ البَحْرَ يَبْغِي أَمْ إِلى اللَّيْثِ يَدْلِفُ[5]

وأحيانا يأخذ من الشعراء الأولين المعنى ليصوغه في قصيدته حسبما يقتضيه الموقف، فمثلا قوله:

وصِرْتُ كَصَاحِبِ الضَّلِيلِ *** دُونَ الدَّرْبِ أَنْتَحِبُ[6]

فقد أخذ معناه من قول امرئ القيس:

---

[1] – ابن الخطيب ، الديوان ،ج1، ص 312 .

[2] - الفرزدق ، الديوان ، تحقيق علي فاعور ، دار الكتب العلمية ،بيروت ، لبنان ،ط1، 1987 ،ص512.

[3] - ابن الخطيب ، الديوان ،ج2 ، ص 765 .

[4] – المتنبي، الديوان، ج2، 312.

[5] – ابن الخطيب، الديوان، ج2، 672.

[6] – المصدر نفسه : ج1، ص 124.

بَكَى صَاحِبِي لَمَّا رَأَى المَوْتَ دُونَهُ *** وأَيْقَنَ أَنَّا لاَحِقَانِ بِقَيْصَرَا [1].

وأيضا من تضمينه قوله:

الطَّـــاعِمُ الكَاسِـــي ورِفْـــدُكَ كَافِـــلٌ *** وَالعَالَـــةُ المُعْفَـــاةُ مِمَّـــا يُثْقِـــلُ.
أصْـبَحْتُ فِـي زُغْـبٍ كَـأَفْرَاخ القَطَـا *** والمَـــاءُ شَـــرْطُ حَيَـــاتِهِمْ والسُـــنْبُلُ[2].

ففي هذين البيتين اشارة إلى قول الحطيئة:

دَع المَكَـــارِمَ لاَ تَرْحَـــلْ لِبُغْيَتِهَـــا *** وَاقْعُـدْ فَإِنَّـكَ أَنْـتَ الطَّـاعِمُ الكَاسِـي[3].

وبيته الآخر:

ما تَقُولُ لأفْرَاخ بِذِي مَرَخ *** زغْب الحَوَاصِلِ لا ماءٌ ولا شجرُ[4].

كما ضمّن لأبي نواس بيته المشهور في الخمرة:

دَعْ عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ اللَّوْمَ إِغْرَاءُ *** ودَاوِنِي بِالتِي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ.[5]

لكن ابن الخطيب حوَّر معناه وجعله في النسيب يمهّد به لمدح السلطان ، فقال:

أَشْكُوكِ أَمْ أَشْكُو إِلَيْكِ صَبَابَتِي *** أَنْتِ الدَّوَاءُ وَمِنْكِ كَانَ الدَّاءُ.[6]

---

[1] – امرؤ القيس بن حجر الكندي، الديوان ، تحقيق عبد الرحمن المصطاوي،دار المعرفة بيروت، لبنان ،ط2 2004 ص 96 .

[2] – ابن الخطيب، الديوان، ج2، ص 497، و 505.

[3] – الحطيئة ،الديوان، شرح ابن السّكيت والسكري والسجستاني، تحقيق عثمان أمين طه، مطبعة مصطفى البابي مصر، ط1، 1958، ص284.

[4] – المصدر نفسه : ص208.

[5] – أبو نواس، الديوان، شرح محمود أفندي واصف، المطبعة العمومية، مصر، ط1، 1898، ص234.

[6] – ابن الخطيب، الديوان، ج1، ص93

من خلال ما تقدم من أمثلةٍ، يظهر لنا مدى تأثُّر ابن الخطيب بالمشارقة قدماء ومحدثين، وذلك لإثبات الذَّات أو للتَّفوق [1]، ولقد كان لعمق ثقافته أثر كبير في احتفاء معجمه الشعري بمفردات وتراكيب تنتمي لعدد من الروافد الثقافية.

ثانيا – الصّورة الشعرية :

تُعدُّ الصورة الشعرية هي العنصر الجوهري في لغة الشعر ، « وهي أداة الشاعر الأمثل ؛ يبني بها أعلى مراتب الشعر ،حيث تتشكَّل الصورة بفعل الخيال متأثرةً بكل العوامل السابقة والآنية، وذلك حسب التجربة والحالة النفسية لدى الشاعر»[2]، فيُترجمها حسب ما يقتضيه الموقف ؛مشكّلا بذلك صورةً شعريةً، وقد تكون تلك الصورة إمّا بيانية (تشبيه، استعارة ، كناية)،أو صورةً بديعية:(تصريع جناس، طباق) أو غيرها من الصُّور ...

وفي دراستنا هاته ركّزنا على صورتين هما: الصورة البديعية ، والصورة البيانية والتي كان ابن الخطيب قد وظّفها بشكل مكثّفٍ في قصائده المدحيةِ .

1 – الصورة البديعية :

أ – التصريع :

قل أنْ نجد قصيدة مدحية يبتدأ بها ابن الخطيب إلا وتراه يعتمد على التَّصريع «والتَّصريع هو استواء عَروض البيت وضربه في الوزن والإعراب والتفقية»[3] ، وعنه يقول

---

[1] – ينظر :فورار اِمحمد، الشعر السياسي في الأندلس ، ص241.

[2] – خالد بن سعود الحليبي، البناء الفنّي في شعر عمربهاء الدين الأميري، نادي الأحساء الأدبي، السعودية، ط1 2009، ص 277 .

[3] – ابن جابرالأندلسي ، الحلة السيْرى في مدح خير الورى ، ص 62 .

ابن الأثير: «هو في الشّعر بمنزلة السجع في الفصلين من الكلام المنثور، وفائدته في الشعر أنّه قُفل كمال البيت الأوّل من القصيدة تعلم قافيتها».[1]

والتَّصريع أيضًا دليل على اقتدار الشاعر وسعة بحره. هو من الأساليب الجمالية التي تفنَّنَ الشعراء فيها لإثبات قدرتهم، فلمْ يغادرهُ معظم الشعراء، وذلك لما يضفيه المن إيقاعٍ موسيقيٍّ على القصيدة، ولهذا نجد ابن الخطيب قد اعتنى في قصائده بالتّصريع ونادرًا ما يستغني عنه، ومن أمثلة قصائده التي جاء فيها بالتّصريع يقول في مستهل مدحه للسلطان أبي الحجَّاج:

وَسْوَاسُ حَلْيِـكِ أمْ هُمُ الرَّقبـاء *** للقَلْب نَحْوَ حَدِيثِهِمْ إصّغَاءُ.[2]

فالتَّصريع في هذا البيت بين كلمة الرُّقَبَاءُ وإصْغَاءُ يُحْدث نغمًا موسيقيا، يهيِّئ النفوس لتلقِّي بقية أبيات القصيدة.

ومن التَّصريع قوله أيضًا في مدح السُّلطان:

مَقَامُكَ مَرْفُوعٌ عَلَى عَمَدِ السَّعْد *** وحَمْدُك مَسْطُورٌ على صُحُفِ المَجْدِ.[3]

فابن الخطيب ينتقي الألفاظ التي يأتي بها في التّصريع ليجِلَّ بذلك ممدوحه ويُعْلِي من مقامه ، فكلمتا "السَّعْد" و"المجد"؛ لها دلالات السُّؤدَدُ، والرِّفْعَة.

ومن تصريعه أيضا ما يمدح به:

حنَّتْ لخُضر رُبَى وزُرْقِ مِيَاهِ *** وَجَآذِر مِنْ قَوْمِهَا أشْبَاهِ.[4]

---

[1]– نصر الله ابن الأثير ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر،تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ،مصر ، (د،ت) ،1939 ،ج1، ص 295 .

[2]– ابن الخطيب، الديوان، ج1، ص93.

[3]– المصدر نفسه : ج1، ص296.

[4]– المصدر نفسه : ج2، ص746.

وأيضا قوله مهنئًا:

هنيئًا لك العيد الذي أنت عيده *** وفي الله ما تبديه أو ما تُعيده. [1]

وأيضا في قوله في مدح السلطان أبي الحجّاج أتى بالتصريع في مستهل القصيدة:

زَارَتْ وَنَجْمُ الدُّجَى يَشْكُوُ مِنَ الأرَقِ *** وَالزَّهْرُ سَابِحَةٌ فِي لجَّةِ الأفُقِ. [2]

فقد زانَ التَّصريعَ حرف الرَّوي القاف، حيث أضفى عليها نغمًا موسيقيا متوافقا ما بين كلمة الأرَقِ، و الأفُقِ.

وقوله أيضًا:

بُشْرَى يَقُومُ لَهَا الزَّمَانُ خَطِيبًا *** وتَأَرُّجُ الآفَاقِ مِنْهَا طِيبًا. [3]

وقال مادحًا أيضًا مبتدئًا بتصريعٍ جميلٍ:

ألاَ حَدِّثَاهَا فَهِيَ أُمُّ العَجَائِبِ *** وَمَا حَاضِرٌ فِي وَصْفِهَا مِثْلُ غَائِبِ. [4]

ويقول أيضًا مادحًا:

لَقَدْ رَامَ كَتْم الوَجْدِ يَومَ ارْتِحَالِهِ *** وَلَكِنْ دَمْعُ العَيْن بَاحَ بِحَالِهِ. [5]

وعلى طريقة الشُّعراء الجاهلين يستهل إحدى قصائده مما يدل على تفنُّنِهِ في الشعر:

حَيِّ رُبُوعَ الحَيِّ من نُعْمَانِ *** جُودُ الحَيَا وسَوَاجِمُ الأجْفَانِ. [6]

وقوله أيضا:

---

[1]- ابن الخطيب، الديوان، ج1، ص270.

[2]- المصدر نفسه: ج2، ص690.

[3]- المصدر نفسه: ج1 ، ص 103.

[4]- المصدر نفسه : ج1، ص112.

[5]- المصدر نفسه: ج2، ص483.

[6]- المصدر نفسه: ج2، ض 576.

سَقَى دَارَهُمْ هَامٌ مِنَ السُّحُبِ هَامِعٌ *** ولاَأَجْدَبَتْ تِلْكَ الرُّبَى والأجَارِعُ .[1]

ولعلنا من خلال هاته الأمثلة نستشف مدى قدرة ابن الخطيب على تطويع الأساليب وتوظيفها توظيفا يدل على شاعريته الفذة، وأنّه سار على نهج الشعراء الأولين مقتفيًا آثارهم سالكا نهجهم في كل ما طرقوه من شعر جميل .

ب-الجناس:

يقوم الجناس على أساس التَّشابه بين لفظين في الشَّكْلِ، مع اختلافِهِمَا في المدلول « فإن اتفق اللفظان في أنواع الأصوات، وعدد ترتيبها، وهيئتها الحاصلة من الحركات والسَّكَنَاتْ كان التجانس تامًّا، وإنْ اختلف اللفظان في واحد من الأربعة المتقدمة كان التَّجانس ناقصًا».[2]

وتحدث النُّقَّاد عن قيمة الجناس في العمل الأدبي، «فبيّنوا أنه إذا جاء غير متكلف تمَّ به المعنى، وللجناس ما للتكرار من تأكيد النَّغم ورنته، الأمر الذي يزيد من تأثير الكلام على المتلقّي»[3] ، ومن جماليات الجناس أيضًا يكمن في إيهام النّفس أنَّ الكلمة المكررة ذات معنىً واحد، فإذا أمعنَّا النّظر اتّضح أنّ الكلمتين مختلفتين فيدفع هذا إلى الاعجاب بالشاعر الذي اهتدى إلى هذا الاستخدام.[4]

وإذا نظرنا إلى هذا المحسن البديعي عند ابن الخطيب نجده قد استعمله استعمالاً حسنًا راعى شروط النقاد مبتعدًا عن التكلف، مثال ذلك قوله:

ما على القلب بعدكم من جُناح ***أن يُرى طائرًا بغير جناح.[5]

---

[1] – ابن الخطيب ، الديوان، ج2 ، ص 647 .

[2] – جلال الدين القزويني ،التلخيص في علوم البلاغة ، شرح عبد الرحمن البرقوقي، دار الفكر العربي ، بيروت لبنان ،ط1 ، 1932، ص 388 .

[3] – عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تعليق محمود شاكر، دار المدني، جدة السعودية، ط1، 1991، ص8.

[4]– ينظر: أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي عند العرب، دار النهضة، القاهرة، مصر، (د ط)، 1994، ص476.

[5] - ابن الخطيب ، الديوان ، ج1، ص 250.

فكلمة جُناح تعني الحرج، وجناح جناح الطائرالمعروف، لتُشَكِّل الكلمتين،جناسًا ناقص ؛ جاء غير متكلّف يُضْفِي على مطلع القصيدة نغمًا موسيقيًا، مما يزيد في تحسين صورة القصيدة وبهائها ،ويترك أثرا في المتلقي .

وكذلك من أمثلة الجناس التَّام قوله :

في مَوْقِفٍ يَا هَوْلَهُ مِنْ مَوْقِفٍ *** يَذْوِي لَهُ رَضْوَىَ* ويَذْبلُ يَذْبُلُ*.[1]

فقد جانس بين يَذْبُلُ،وهي اسمُ علمٍ على جبلٍ معروفٍ في المدينة النبوية،ويَذْبُلُ والتي هي الفعل ذَبَلَ، فالشاعر يُوهِمُ المتلقي بأنَّ للكلمتين المعنى نفسه، ممَّا يزيد من اِعجاب المتلقي بالشَّاعر.

لكن الجناس الأكثر حضورًا لدى ابن الخطيب ، والأوفر استعمالاً في قصائده المدحية هو الجناس الناقص، وغالبا ما يكون الضرب هو موقِعُ أحد طرفي هذا الجناس مثال ذلك قوله:

وَمَالِي لاَ أَبْكِي بِعَيْنٍ قَرِيحَةٍ *** عَلَى فُرْقَةِ الأَحْبَابِ تُهْمِي وتَهْمَعُ.[2]

فنلاحظ أنَّ الجناس الناقص بين كلمتيْ تُهْمِي من الهيام، وكلمة تَهْمَعُ من فعل هَمَع أي دمع، نرى أنَّ هذا الجناس وقع في ضرب البيت.

ومثال أيضًا على الجناس جاء في ضرب البيت قوله:

هَفْهَافَةٌ يَقْضِي لَطِيفُ هُبُوبِهَا *** بِتَذَكُّر الأَوْطَانِ والأَوْطَارِ.[3]

---

* "رَضْوَىَ" ، و "يَذْبُلُ" : جَبَلان معروفان بالمدينة .

[1]– ابن الخطيب ، الديوان ، ج2، ص499.

[2]– المصدر نفسه: ج2، ص665.

[3]– المصدر نفسه: ج1، ص367.

فقد جانس بين الأوطان، والأوطار، جناسًا ناقصًا، فتَّم له المعنى المطلوب بما تركه في الّنفس، من خلال اشتراك اللفظ الذي يجعل المتلقي يحسُّ بظروف الشاعر النفسية، وحنينه إلى الأوطان والديار.

ومن الجناس أيضًا قوله:

وسَرتْ بَشَائِرُهَا بِكُلِّ تَحِيَّةٍ *** شَدَّتْ لَهَا الأقْتَادُ والأقْتَابُ.[1]

فالجناس حاصل في قوله الأقْتَادُ ، و الأقْتَابُ وهو "جناس ناقص".

وكذلك قوله في قصيدة مدحية:

هِيَ أسْعدٌ مَا دُونَهُنَّ حِجَابُ *** لاَ يَنْقَضِي عَدٌّ لَّهَا وَحِسَابُ. [2]

فقد جانَس بين حِجَابٍ ، وحِسَابٍ.

وأيضًا من الجناس الناقص قوله:

وَهَوَتْ إليه أسِنّةٌ وأَسرَّةٌ *** ومواكبٌ وكَتَائبٌ وكِتَابُ.[3]

فالجناس في وقوله "أسنَّة" والتي هي الرّماح، وأَسّرة والتي هي جمع سرير،تشكل هاتين الكلمتين جناسًا ناقصًا لتُغَيّر الحرف الثالث في كلتا الكلمتين. والجناس النّاقص أيضًا بين كلمتي كتائب التي تعني الجيش وكلمة كتاب المعروف،حيث زاد الأول كتائب على الثاني كتائب صوتًا وهو (الهمزة) التي فرّقت بين مدلول الكلمتين.

ومن خلال هذه الأمثلة يتضَّح لنا حضور الجناس بشكل مكثّف في قصائد ابن الخطيب المدحية، وخاصة الجناس الناقص، ولو بسطنا أمثلة أكثر على الجناس لمَا اتّسع المقام لذكرها.

---

[1]– ابن الخطيب، الديوان ،ج1 ، ص 105 .

[2]– المصدر نفسه : ج1 ،ص105 .

[3]– المصدر نفسه : ج1 ، ص 106 .

ج- الطباق:

يُعدُّ الطباق فنًّا من الفنون البلاغية، ومن المحسنات البديعية المعنوية، قد أكثر شعراء الأندلس منه ، حتى لا يكاد واحدٌ من أشعارهم يخلو منها.[1]

وقد أورد أبو هلال العسكري تعريفًا للطباق حيث قال: «المطابقة في الكلام هي الجمع بين الشيء وضده في جزء من أجزاء الرسالة، أو الخطبة، أو البيت من بيوت القصيدة، مثل الجمع بين البياض، والسواد، والليل ،والنهار، والحر والبرد»[2]، وهو الجمع بين معنيين متقابلين سواءً كان ذلك التقابل، والتّضاد ايجابًا أو سلبًا.[3]

إنَّ توظيف ابن الخطيب للطباق يتم عن وعي كبير، ينُمُّ عن مقدرته ،وبراعته في التَّفنن في استخدام الأساليب البلاغية، وخاصة الطّباق حيث إنّه لا يتكلف في اختيار الكلمة، وما يضادُّها، فأغلب الكلمات التي جاءت في قصائده ضمن نطاق الطّباق كانت معروفةً، ولم تكن غامضة فمنها قوله:

وأَتَاحَ أَنْدَلسًا بِجَدِّ حُسَامِهِ *** قَسْرًا فأَحْيَا الأَرْضَ بَعْدَ مَمَاتِهَا.[4]

فوظف كلمة "أحيا" واستدعى ما يُضادُّها وهي "مماتها" من غير تكلف .

ويقول أيضًا:

أَبَادُوا شَيَاطِينَ الضَّلاَلِ وزَيَّنَتْ *** سَمَاءَ رُسُومِ الحَقِّ مِنْهُم مَصَابِحُ.[5]

فالشاعر يطابق بين كلمتيْ الضلال و الحقّ ، مشكلا بذلك طباق الايجاب .

---

[1]- ينظر: عبد العزيز عتيق، علم البديع في البلاغة العربية، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، (د ط)، 1974 ص72.

[2]- أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، ص 307.

[3]- ينظر : عبد الله ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، تحقيق ابراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1 1982 ،ص200.

[4]- ابن الخطيب، الديوان، ج1، ص171.

[5]- المصدر نفسه : ج1 ، ص 227 .

وقوله في قصيدة مدحية طويلة قد أكثر فيها الطباق:

ومَـدَدْت كَـفَّ الفَقْـر أَسْـأَلُهُ فَيَـا *** عِـزَّ الغِنَـى وذِلَّـةَ المُحْتَـاج.[1]

وطابق بين كلمتي البِعاد من البعد ، وبين كلمة دانٍ من القرب، وذلك في قوله

كيـف أشـكو بِعَـادَ مَـنْ هُـوَ دَان *** قَاتَـل اللهُ شِـرّتِي ولَجَـاجِي .[2]

وقوله أيضا :

واسْلُكْ فِي السَّيْر بِهِ مَنْهَجًا *** عَنْ مَادِح جَلَّ ،وعَمَّنْ هَجَا.[3]

فالطباق هنا بين كلمة مادح وهجا.

والشاعر يجنح كثيرًا إلى استخدام الطباق الموجب على حساب الطباق السّلبي؛الذي كان حضوره ضعيفًا في قصائده، ومن أمثلة الطباق الايجابي قوله:

أَفِضْ في الرَّعَايَا العَدْلَ تَحْظَ بِحُبِّهَا *** وحَكِّمْ عَلَيْهَا الحَقَّ فِي الحِلِّ والعقْدِ.[4]

فقد طابق بين كلمتيْ الحل و العقد ، مشكلا طباق إيجاب .

وقوله أيضا من الطباق الايجاب :

واللَّحْنُ قَدْ وَشَجَتْ غُصُونُ ضُرُوبِهِ *** فَسَبَى العُقُولَ خَفِيفُهُ ،وثَقِيلُهُ.[5]

من أمثلة طباق السلب قوله:

فَضَاءٌ تَضِيقُ الأَرْضُ عَنْهُ بِرَحْبِهَا *** وشِيمَةُ حِلْمٍ لا يَضِيقُ بِهَا صَدْرُ.[6]

فالطباق السلب يتمثل في كلمتي يضيق و لا يضيق.

وأيضًا قوله:

---

[1]- ابن الخطيب، الديوان ،ج1، ص200.

[2]- المصدر نفسه :ج1 ، ص 196 .

[3]- المصدر نفسه :ج1، ص 204.

[4]- المصدر نفسه :ج1، ص 308.

[5]- المصدر نفسه :ج2، ص 479.

[6]- المصدر نفسه : ج1 ،ص 400.

يُؤَلّفُ بِالحُسْنَى قُلُوبًا تَفَرَّقتْ *** يُفَرّقُ بِالإحْسَانِ مَا لاَ يُؤَلِفُ. [1]

فقد جمع ابن الخطيب في هذا البيت بين طباق الايجاب وذلك في كلمة يُؤلفُ ويُفرق، وأيضا في البيت طباقُ السلب بين كلمتي يؤلف و لا يؤلف.

من خلال هذه الأمثلة التي أوردناها لا نكاد نرى قصيدة من قصائد ابن الخطيب إلاَّ وقد قرعت أسماعَنَا جملة من الصُّور الطباقية، إذْ كثيرا ما يَعْمِدُ الشَّاعر إلى هذا الأسلوب ، ويوظِّفُه في تصويراته الفنيّة.

ويُسْتَخلصُ ممَّا تَقدَّم أنَّ ابن الخطيب، قد وُفّقَ في انتقاء اللّغة المعبّرة،والأسلوب الواضح ، وذلك لإخراج مادته الشّعرية في شكل مناسب، فقد كانت لغته ،وأسلوبه في قصائده شبيهة بتلك التي وُجدتْ عند الشعراء الأوائل، لا من حيث النوع فقط، بل من حيث التَّوظيف أيضًا.

2- الصّورة البيانية:

الصورة البيانية مصطلح تناوله العديد من النّقاد قديمًا وحديثًا، فقديمًا كان ينظر إليها من منظور بلاغي من حيث تشبيه واستعارة، واعتبرت وسيلة لتقريب المعنى نتيجة ربط الشاعر المعنوي بالمحسوس لايصال المفاهيم للمتلقي، والمراد بالصّورة ابراز المعنى العقلي، أو الحسي في صورة محسوسة، وهي خلق المعنى والأفكار المجردة أو الواقع الخارجي من خلال النفس خلقًا جديدًا.[2]

[1]- ابن الخطيب، الديوان ،ج2، ص 670.

[2]- ينظر: أحمد حسن الزيّات، دفاع عن البلاغة، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط2، 1967، ص 62.

أ-التشبيه:

هو الحاق أمر بأمر معروف في وصف أداة لغرضٍ، والأول المُشَبّه، والثاني المُشَبَّه به والوصف هو وجه الشبه، والكاف هي الأداة [1] ،أو« هو العلاقة التي تجمع بين طرفين لاتحادهما،أواِشتراكهما في صفةٍ ،أو حالةٍ أو مجموعةٍ من الصّفات،أو الأحوال، هذه العلاقة تستند إلى مشابهة في الحكم،أو المقتضي الذّهني الذي ربط بين الطرفين المقارنين دون أن يكون من الضروري أن يشترك الطرفان في هيئة مادية،أوكثير من الصفات المحسوسة».[2]

بالنظر إلى ديوان ابن الخطيب نراه قد استخدم التشبيه، وذلك أنّ المدح يتطلب الصُّور الفنية بكثرة ومنها التشبيه، ومن أمثلة تشبيهاته قوله مادحًا:

فكـأنّهم والمَشْرفيّـة فَوْقَهُمْ *** نارالقَبُـولِ أتَتْ علَى قُرْبـانِ.[3]

حيث يصوِّر سيوف ممدوحه، وهي فوق الأعداء مسلولة، فيشبِّهُهَا بتلْكَ النَّار؛التي تأتي على مايُقَدَّمُ لها من قرابين، وهو تصوير بديع من وحي خيال الشاعر ويقول أيضًا :

تَقـيٌّ حَـذَا حَـذْوَ الخَلائِـفِ واقْتَـدَى *** بِهِم مِثْلَ مَـاخُطَّ الكِتَـابُ عَلَـى الرَّسّمِ.[4]

فقد شبه الشاعر ممدوحه، وهو يقتفي آثار الخلفاء الراشدين، بحالِ من يجري في الكتابة على خطّه له غيره، وهي صورةٌ مستوحاةٌ من جوّ الكُتّاب وتعليم الكتابة.

---

[1]- ينظر:عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر، مطبعة المدني، (د ط)، (ت)، جدة، السعودية ص 144.

[2]- جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النّقدي والبلاغي عند العرب، دار التنوير، بيروت ، لبنان، ط2، 1983 ص 172

[3]- ابن الخطيب، الديوان، ج2، ص 577.

[4]- المصدر نفسه : ج2، ص 531.

ونراه يعقد التشبيه بالأداة أحيانًا لرسم صورة بهية لممدوحه، ومن ذلك مَدْحُه لأبي عامر الهنتاتي:

مَـــآثِرُهُم فِـــي الـــدِّينِ غَيـــرُ خَفِيَّـــةٍ *** فَهُـــم كَـــالنُّجُومِ الزَّاهِـــرَاتِ لِمُهْتَـــدِي.[1]

فقد جعل صورة قوم الممدوح كالنجوم المضيئة التي يهتدي بها السّاري إلى الطريق الصّحيح، وذلك بواسطة أداة التشبيه الكاف.

وقد وظف ابن الخطيب التشبيه البليغ في عدة مواطن؛ والذي عدّه علماء البلاغة بأنَّه أعلى مراتب التشبيه، لما فيه من اِدّعاء أنّ المُشَبَّه هو نفسه المشبَّه به، ولما فيه أيضا من إيجاز ناشئ عن حذف الأداة ووجه الشَّبه معًا[2] ، ومن أمثلة ذلك قوله في السُّلطان أبي الحجّاج:

ويَاأَمِيرَ الهُدَى هُنِّيتَهَا نِعَمًـا *** مَوْصُولَةُ العِدِّ قدْ جَلَّتْ عَنِ النِّعَمِ[3]

حيث صوَّر ممدوحه بأنّه أمير الهدى، واستغنى في هذه الصّورة عن أداة التشبيه، مشكلا بذلك تشبيهًا بليغًا، ومن ذلك قوله:

هو السُحُبُ جُودًا والكَوَاكِبُ همّةً * وبَدْرُ الدُّجَى وجْهًا وشَمْسُ الضُّحَى رَأْيًا.[4]

وقوله أيضًا من التشبيه البليغ:

وجْهُكَ فِي النَّائِبَاتِ بَدْرٌ دُجَى *** لَنَا وفِي المَحْلِ كَفُّكَ المَطَرُ.[5]

---

[1]– ابن الخطيب، الديوان ، ج1، ص 313.

[2]– ينظر : عبدالعزيز عتيق، علم البيان، دار الآفاق العربية، القاهرة، (د ط)، 2004، ص 80.

[3]– ابن الخطيب، الديوان، ج2، ص 532.

[4]– المصدر نفسه، ج2، ص 776.

[5]– المصدر نفسه، ج1، ص 404.

ففي البيت الأول جعل ممدوحه كالسُّحب التي تَسِحُّ بالأمطار، وشبَّهَ وجْه السلطان بالبدر، وأنّه هو الشَّمس لوضوح رأيه، ممثلا بذلك تشبيهًا بليغًا، أمَّا في البيت الثاني فقد وصف وجه الممدوح بأنّه بدرٌ دُجى، وأنّ كفّه كالمطر لا تَخْشَى عطاءً.

يلجأ ابن الخطيب أحيانًا إلى التشبيه الضّمني؛ الذي يُعقد فيه الشَبَه بين الطرفين عن طريق التَّلميح دون التصّريح، فهو تشبيه مضمرٌ في النفس[1] ، مثال ذلك قوله في حقّ الغني بالله من قصيدة طويلة:

فاحْذَر صَغِيرَ الأمْر ولْتَحْفِلْ بِهِ *** واذا غَفَلْتَ فإنّه يُسْتَفْحَلُ.
فالنّارُ أوَّلُ ما تَكُونُ شرارةً *** والغَيْثُ بعدَ رذَاذِهِ يُسْتَرْسَلُ.[2]

فشَبَّه ابن الخطيب تلك الأمور الصّغار؛ التي يتولّد عنها عظائم الأمور، إذا لم يُلْقَ لها بالاً، وشبَّهَهَا بأوّل المطر وهو الرذاذ ما إنْ يلبث حتى يصير مطرًا هَطَّالاً فالشاعر لم يصرّح بما يؤول إليه الأمر، وليكن لجأ إلى الإيحاء، والتلميح .

ب-الاستعارة:

تُعدُّ الاستعارة نوعًا من التعبير الدلالي القائم على المشابهة [3] ،ويعرفها السَّكَّاكِيُّ بقوله «هي أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر مدعيًا دخول المشبه في جنس المشبه به دالاً على ذلك بإثباتك للمشبه ما يخص المشبه به.»[4] ،والاستعارة على نوعين:

1-استعارة تصريحية: وهي ما صُرح فيها بلفظ المشبه به.

---

[1]- ينظر: الأزهر الزنَّاد، دروس البلاغة العربية نحو رؤية جديدة، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1 1992 ص 35.

[2]- ابن الخطيب، الديوان، ج2، ص 503.

[3]- ينظر: ابتسام احمد حمدان، الأسس البلاغية للإيقاع البلاغي في العصر العباسي، مراجعة أحمد فرهود، دار القلم العربي، حلب ، سوريا ، ط1 ، 1997 ، ص 250 .

[4] - يوسف بن علي السكاكي، مفتاح العلوم، تعليق، نعيم زرزور، دار الكتاب العلمية، بيروت، لبنا، ط2، 1987 ص 369 .

2-استعارة مكنية: وهي ما حذف فيها المشبه به ورمز إليه بشيء من لوزمه.[1]

وابن الخطيب في قصائده المدحية قد استعمل الاستعارة بنوعيها ،والأمثلة على ذلك كثيرة نذكر منها قوله في المدح:

وأنْتَعِلُ الجَوْزَاءَ عُجْبًا وإنْ غَدَتْ *** تُقْرِطُ آذَانٌ بهَا وتُشنِّفُ.[2]

فالشاعر في هذا البيت قد استخدم الاستعارة التَّصريحية في قوله وأَنْتَعِلُ الجوزاء فحذف المشبه ، وهو الحذاء ،وأبقى على شيء من لوازمه ألا وهو الانتعال.

وأيضًا قوله يمدح شيخه:

كأنَّ لسانَ الدَّهر نَفْثُ يرَاعِه *** يُتَرجْمُ عمَّا أضْمَرَتْهُ المَقَاديرُ.[3]

حيث جعل ابن الخطيب للدهر لسانًا فحذف المشبه به وهو الإنسان، وأبقى على شيء من لوازمه وهو اللسان مُشكلاً بذلك استعارة مكنية.

فَلاَ بَرِحَتْ أيَّامُكَ الغُرُّ تَقْتَفِي *** بِكَ الفَتْحَ والآمَالُ لا تَتَـوَقَّفُ.[4]

فقد حذف الشاعرُ المشبَّهَ به وهو "الانسان"، وترك مايدل عليه ،وهو الاقتفاءُ مشكّلا بذلك استعارةً مكنيةً ، حيث شخّص أيام ممدوحه وبثَّ فيها حيويةً وماذاك إلا ليرفع من قدره ويجلّـهُ .

[1]- ينظر: عبد العزيز عتيق، علم البيان، ص 133

[2]-ابن الخطيب، الديوان، ج2، ص 671.

[3]- المصدر نفسه : ج1، ص 403.

[4]- المصدر نفسه : ج2، ص 672.

د-الكناية:

الكناية هي ترك التصّريح بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه، لينتقل من المذكور إلى المتروك[1] ، والناظر لقصائد ابن الخطيب المدحية يراه قد وظف الصورة الكنائية بشكل مقتدر ومن ذلك قوله يمدح السلطان أبي الحجّاج:

مَلِـكٌ عَزِيـزُ الجَـار مَمْنُـوحُ الحِمَـى *** مَمْنُـوحٌ مُنْهَـلِّ النّـدَى مبْذُولُـهُ.[2]

فالشاعر يعطي وصفًا لممدوحه بأنَّ الذي يَلْجَأُ إليه لا يلحقه أذىً، ومن احتمى به فلا سبيلَ للوصول إليه. وتُعدُّ هذه الصّفة من أنبل ما تمدح به العرب:

ومن أمثلة كناياته أيضًا يمدح قوم بني نصر:

الطَّـاعِنُونَ الخَيْـلَ يَـوْمَ المُلْتَقَـى *** والمُطْعِمُـونَ إذا عَـدَت الشَّـهْبَاءُ.[3]

فقد مدحهم بالشجاعة في الحرب، وهو الجود والكرم في العطاء بل وأكثر من ذلك أنّهم يُطعمون ويقرون الأضياف حتى في السَّنوات العجاف.

ومُجْمَلُ القول إنَّ ابن الخطيب قد تفنَّن في الصُّورة الفنّية أيّما تفنُّنٍ، ووظّف صُوَرَهُ سواء التشبيه ،أو الاستعارة ،أو الكناية ،على حسب المقام الذي يقتضيه القول مستفيدًا من الشعراء الذين سبقوه، مستوحيًا صوَرَ البيئة الأندلسية لتنسيق ما يستعمله من أساليب فنّية تطرب السامع ، وتشد ذهن المتلقي.

---

[1]- ينظر: بدوي طبانة، البيان العربي، (دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية)، مطبعة الرسالة، مصر ط2 1958، ص 332.

[2]- ابن الخطيب، الديوان ، ج2، 479.

[3]- المصدر نفسه : ج1، ص 95.

ثالثا: الوزن والقافية :

تعدّ الأوزان والقوافي من الأركان الجوهرية لموسيقى الشّعر، إذْ أنَّها تُضفي عليه رونقا جميلا، يتمثل في النّغم المتَّزن، « وبهما يُفَرَّقُ الشعر من النثر، ولذلك عَدَّ العرب القدامى الشعر بأنّه قول موزون مُقَفَّى يدل على معنى»[1]

فالوزن والقافية يمثلان الموسيقى الخارجية للقصيدة، حيث تساهم في سهولة تلقي الشعر، والانفعالَ به وتترك أثرًا بالغًا في نفس المتلقي[2] ، وكان النّقاد لا يرون في الشعر أمرا جديدًا يميِّزه عن النثر؛ إلا ما اشتمل عليه من الأوزان والقوافي.[3]

1- الوزن :

يُعدُّ الوزن من أبرز الأدوات التي يستخدمها الشّاعر في تكوين نسيج قصيدته، وهو أخصُّ مميزات الشعر، وعنه يقول ابن رشيق «الوزن أعظم أركان حدّ الشعر وأولاها به خصوصيته، وهو مشتمل على القافية وجالب لها ضرورة».[4]

وقد التزم شعراء العرب منذ القدم بما جاء به الخليل بن أحمد الفراهيدي، الذي استطاع أنْ يحصر أوزان الشعر العربي في خمسة عشر بحرًا، ثم جاء بعده الأخفش فتدارك عليه وزنًا آخر سمّاه المتدارك، فأصبحت بحور الشعر العربي ستة عشر بحرًا.

وفي دراستنا لقصائد بن الخطيب المدحية، نلاحظ أنّه سلك مسلك الشُّعراء الذين سبقوه، إذ نظم على أحد عشر بحرًا مع تفاوت في نسبة الاستعمال فيما بينها، وذلك

---

[1]- سلام على الفلاحي، البناء الفنّي في شعر ابن جابر الأندلسي، دار غيداء، عمان الأردن، ط1، 2013، ص 264.

[2]- ينظر: فوزي خضر، عناصر الإبداع الفني في شعر ابن زيدون، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود أبا بطين، الكويت، (د ط)، 2004، ص 211.

[3]- ينظر: ابراهيم أنيس، موسيقى الشعر، مطبعة لجنة البيان العربي، مصر، ط2، 1952، ص 12.

[4]- ابن رشيق، العمدة، ج1، ص 134.

لاختلاف مواضيع شعره، وأنّه كان يختار البحر الذي يناسب المقام الذي يقول فيه قصيدته، ومن خلال تتبعّنا لقصائده المدحية فقد جاء تواتر البحور على النحو الآتي:

البحر	عدد القصائد	البحر	عدد القصائد
الطويل	61	المتقارب	3
الكامل	56	الرّمل	3
البسيط	20	المنْسرح	3
الخفيف	10	المتدارك	1
السّريع	6	الرجز	1
الوافر	6	المجموع	170 قصيدة

من خلال هذا الجدول نلاحظ أنّ ابن الخطيب بنى أغلبية قصائده على البحر الطويل، فالكامل، فالبسيط، فالخفيف، ثم تأتي بقية البحور.

ونرجع إلى البحر الطويل الذي يقول عنه ابراهيم أنيس «من خلال استقراء نصوص الشعر العربي لاحظ العلماء أنّ هذا البحر يتردد بكثرةٍ في الشعر القديم».[1]

ويفسّر بعض النّقاد سبب تسميته بالطويل، لأنّه أطول الشعر، وليس في الشعر ما يبلغ عدد حروفه ثمانية وأربعين حرفًا غيره، والسبب الثاني أنَّ الطويل يقع في أوائل أبياته الأوتاد، وبعد ذلك الأسباب، والوتد أطول من السبب فسُمِّي لذلك طويلاً.[2]

وقد جاء بحر الطويل عند ابن الخطيب على صورتين:

[1] – ابراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ص 39.

[2] – ينظر: محمد حماسة عبد اللطيف، البناء العروضي للقصيدة العربية، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط1، 1999، ص100

1-هي تلك الصُّورة ذات العروض المقبوضة، والضرب صحيح، كقوله:

سُلاَلَةُ أَنْصَارُ اَلْهُدَىْ وَ حُمَاتُهُ *** وَوَارِثُ حِزْبِ اَللهِ نَاْهِيْكَ مِنْ حِزبِ.[1]

0/0/0//0/0/0/0/0///0// 0//0///0//0/0/0/0///0//

فعول| مفاعيلن| فعول| مفاعيلن فعول| مفاعيلن| فعولن| مفاعيلن

فقد جاءت كلمة "وحماته" مقبوضة، وكلمة "من حزب" صحيحة .

أمّا الصورة الثانية : وهي ذات العروض المقبوضة ، والضرب مقبوضة ، مثال ذلك :

خَلِيفَةُ صِدْقٍ لَمْ يَجُدْ بِشَبِيهِهِ *** زَمَانٌ ولَمْ تَأْتِ الدُّنَا بِمِثَالِهِ.[2]

0//0// /0// 0/0/0// 0/0// *** 0//0// /0// 0/0/0/ / /0//

فعولُ مفاعيلن فعولُ مَفَاعلن *** فعولن مفاعيلن فعولُ مفاعلن

فنلاحظ من خلال المثالين أنّ الزّحاف دخل على تفعلية فعولن لتصبح فعول ويدخل على تفعلية مفاعيلن لتصبح مفاعلن، وهذا الزّحاف يسمى بزحاف القبض، وهو حذف الحرف الخامس السَّاكن.[3]

أمَّا عن بحر الكامل عند الشاعر فقد جاء في المرتبة الثانية من حيث تواترها ويسمى البحر الكامل لكمال حركاته ففيه ثلاثين حركة، وهو يصلح لكل نوع من أنواع الشعر، وأقرب إلى الشّدة منه إلى الرقّة [4]. ونرى ذلك واضحًا في قصائد ابن الخطيب المدحية منها قوله:

---

[1] – ابن الخطيب، الديوان، ج1، ص 123 .

[2] – المصدر نفسه: ج2، ص 484.

[3] – ينظر : هشام منّاع، الشافي في العروض والقوافي،دار الفكرالعربي،بيروت، لبنان،ط4،2004 ،ص 60.

[4] – ينظر: غازي يموت، بحور الشعر العربي (عروض الخليل)، دار الفكر اللبناني، لبنان، ط2، 1992، ص 31.

قَـــالُوا وقَـــدْ عَظُمَـــتْ مُبَـــرَّةُ خَالِـــدٍ *** قَـــارِى الضُّـــيوفِ بِطَـــارِفٍ وبِتَالِـــدٍ.
مَاذَا تَمَّتْ بِهِ فَجِئْتَ بِحُجَّةٍ *** قَطَعَتْ بِكُلِّ مُجَادِلٍ ومُجَالِدٍ.[1]

فالألفاظ في هذه الأبيات جزْلةٌ شديدة، وذلك لعظم الممدوح الذي عَظُمت خصاله من ذلك أنّه يُقْري الأضياف، ويَقْطَعُ بالحجَّة، والبُرهان كل مجادلٍ وكلّ مجالدٍ عنيدٍ.

وقد جاء الكامل على صورتين رئيستين في ديوان ابن الخطيب هما:

الصُّورة الأولى: جاءت فيه العروض صحيحة ،والضرب صحيح أيضًا، مثال ذلك قوله:

عَجَبًا لِوَجْدٍ لاَ يَلِينُ شَدِيدُهُ*** وَغَرَامِ قَلْبٍ شَبَّ فِيهِ وَقُودُهُ.[2]

0//0///0//0/0/0//0/// 0//0///0//0/0/0//0///

مُتَفَاعلن| مستفعلن| مُتَفَاعلن مُتَفَاعلن| مستفعلن| مُتَفَاعلن

والصورة الثانية: جاءت فيه العروض صحيحة، والضرب مقطوعة، ومنها قوله:

ياصَفْوَةَ اللهِ المَكِينِ مَكَانُهُ***يَا خَيْرَ مُؤْتَمَنٍ وخَيْرَ نَصِيحِ.[3]

0/0///0//0///0//0/0/ 0//0///0//0/0/0//0/0/

مُسْتَفْعِلُن| مُسْتَفْعلن| مُتَفَاعلن مستفعلن| مُتَفَاعلن| مُتَفَاعلْ

فقد ورد في البيت علة القطع متفاعلْ وهي «علة بالنّقص، حيث يحذف فيها آخر الوتد المجموع، واسكان ثانية مُتَفَاعِلُنْ . مُتَفَاعِلْ».[4]

[1] – ابن الخطيب ، الديوان ، ج1، ص 361 .
[2] – المصدر نفسه : ج1 ،ص 290 .
[3] – المصدر نفسه : ج1، ص 243.
[4] – محمود على الهاشمي، العروض الواضح وعلم القافية، دار القلم، دمشق، سوريا، ط1، 1991، ص 129.

و في بعض قصائده المدحية التي نظمها على بحر الكامل يلتزم بعلة القطع إلى جانب زحاف الخبن وهو تسكين الحرف الثاني[1] ، مثال ذلك:

أَمُحَمَّـدُ المَحْمُـودِ دُمْ فِـي عِصْـمةٍ *** للهِ يَمْضِـــي حُكْمُهَـــا المِقْـــدارُ.
بَـدْرًا ومَـا غَيْـرُ الخِلافَـةِ هَالَـةٌ *** شَمْسًـا ومَـا غَيـرُ العُـلاَءِ مَـدَارُ.
غَيْثًـا ومَـا غَيـرُ النَّـوَّالِ سَـحَابَةُ *** لَيْثًـا وَمَـا غَيْـرُ الظُّبَـا أَظْفَـارُ.
مَـرَّتْ مِـنَ السَّـاعَاتِ عَشْـرٌ فُصِّـلَتْ *** حِـزْبُ الـدُّجَى كَأَنَّـهُ أَعْشَـارُ.[2]

ففي هذه الأبيات جاءت الضّرب ملتزمة بالوزن متفاعلْ في كامل القصيدة، ممَّا أضفى عليها لونا ايقاعيا متغيرا يبعِدُها عن ركاكة الالتزام بتفعيلات بحر الكامل تامة.[3]

أمَّا البحر الثالث الذي نظم عليه ابن الخطيب قصائده المدحية فهو بحر البسيط،«وسُمِّيَ بذلك لأنّه أكثر استيعابًا للأغراض، والمعاني المختلفة، وهو يفوق الطويل رقةً وجزالةً، وقد جاءت فيه معظم المدائح النبوية الدينية، وعليه نظم أصحاب البديع»[4] وقد سار ابن الخطيب على هذا المنوال ونظم عليه عشرين قصيدة في المدح وبلغت أبياته على هذا البحر ثلاث مئة ،وثمانية وثمانون بيتًا (388)، ومن أمثلة استخدامه لهذا البحر قوله في قصيدة مطلعها:

مَـوْلاَيَ مـوْلاَيَ إنْ أَرْضَـاكَ بـذْلُ دمـي *** فَقَدْ أَتَيْـتُ بِـهِ أَسْـعَى عَلَـى قَـدَمِي.[5]
0/// 0//0/0/ 0/// 0//0// 0/// 0//0/0/ 0//0/ 0//0/0/

مستفعلن| فاعلن| مستفعلن| فَعِلُن مستفعلن | فَعِلُن | مستفعلن| فَعِلُن

---

[1]- ينظر:محمد بن حسن بن عثمان، المرشد الوافي في العروض والقوافي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ط1، 2004، ص 29.

[2]- ابن الخطيب، الديوان، ج1، ص 431.

[3]- ينظر: عبد الله الطيب، المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، الدار السودانية الخرطوم، السودان، ط2 1970، ج1، 260.

[4]- محمود علي الهاشمي، العروض الواضح وعلم القافية، ص 47.

[5]- ابن الخطيب، الديوان، ج2، ص 554.

ونرى أنّ البيت قد طرأ على ضربه، وعروضه زحاف الخبن (فاعلن . فعلن) (مستفعلن ـ متفعلن).

ومن أمثلة الأبيات التي جاءت على البحر البسيط قوله:

ومَنْ كَيُوسُف فِي الأملاك مِنْ مَلكٍ *** بـــالحِلمِ مُتَّسِـــمٌ بـــالحَزْمِ مُحْتَـــزِم.
تُنْمَـى عُلاهَـا مِـنَ الأنْصَـار سَـادَتُهَا *** فِـى مَعْشَـر كَكُعُـوبِ الـرُّمْح مُنْـتَظِمِ.
خَلائِـفُ لَـمْ تَـزَلْ بِالهُـدَى صَـادِعَةٌ *** بِالعَدْل فى الظّلْمِ أوْ بِالنُّور فِى الظُّلَمِ.
السـابِقون إلـى الغايـات إنْ ركضُـوُا *** والنـاطقون بِفصْـل الحُكْـمِ فِـي الكَلِـمِ.[1]

فجميع أشطر القصيدة قد انتهت بالوزن فَعِلُن و وُرود هذه الصّورة ممّا تستريح له الأذن، وتطمئن إليه النّفس.[2]

وبالإضافة إلى هاته البحور (الطويل، الكامل، البسيط) نرى ابن الخطيب قد نظم على بحور أخرى كالسريع، والوافر، والخفيف، والمتقارب ،والرمل ...

وهذا ما يدل على اقتدار الشاعر وتمكنّه المطلق من النّظم على البحور الخليلية مقتفيا آثار الشعراء الذين سبقوه.

2-القافية:

تعتبر القافية شريكة الوزن في الاختصاص بالشعر، وهي عند الخليل بن أحمد الفراهيدي آخر حرفٍ في البيت إلى أول ساكن يليه مع المتحرك الذي قبل الساكن[3]، أمَّا من منظور المتأخرين فقد عرّفها ابراهيم أنيس بقوله: «هي عدّة أصوات تتكرر في أواخر الأشطر أو الأبيات من القصيدة»[4]

---

[1]- ابن الخطيب ، الديوان، ج2، ص 533 .
[2]- ينظر: ابراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ص 71
[3]- ينظر:ابن رشيق، العمدة، ج1، ص 151
[4]- ابراهيم أنيس ، موسيقى الشعر ، ص244

ولقد اهتم ابن الخطيب بقوافي قصائده كاهتمامه بالوزن، مراعيًا المعنى الذي يلائم ذلك الوزن وتلك القافية، ممّا أضفى ذلك قيمة جمالية، وموسيقية في جُلّ مدائحه وقد استخدم القافية بنوعيها **المطلقة والمقيدة**، فقد جاءت مئة وسبعون (170) قصيدة ذات القافية المطلقة، وعشرة (10) قصائد ذات القافية المقيدة مثال القافية المطلقة قوله:

وَلَـدْتَ مِـنْ نَصْـر الإلَـهِ حُسَـامَا *** حَـاطَ العِبَـادَ ومَهَّـدَ الأيَّامَـا.
فَـإذَا تَنَبَّـهَ حَـادِثٌ نَبَّهْتَـهُ *** وتَرَكْـتْ أجْفَـانَ الأنَـامِ نِيَامَـا.[1]

إذ نلاحظ أنّ القافية المطلقة الأياما ونياما زادت من جمال الأبيات وبهائها وأحدثت جرساً موسيقيًا تهتزُّ له النُّفوس طربًا.

أمَّا من أمثلة القافية المقيدة قوله:

رَوْضٌ مِـنَ العِلْـمِ هَمَـى فَوْقَـهُ *** مِـنْ صَـيِّبِ الفِكْـر الغَمَـامُ السَّـفُوحْ.
فَمِـنْ بَيَـان الحَـقِّ زَهْـرٌ نَـدِ *** وَمِـنْ لِسَـان الصِّـدْقِ طَيْـرٌ صَـدُوحْ.[2]

ومن خلال استقرائنا لقوافي أشعار ابن الخطيب نجد أنّ الرّوي جاء عنده كالنحو الآتي:

الروي	عدد القصائد	الرّوي	عدد القصائد
الدال	31	الهاء	05
الراء	24	القاف	04
النون	16	السين	04
الميم	15	الألف	03

[1]– ابن الخطيب، الديوان، ج2، ص 534.
[2]– المصدر نفسه : ج1، ص 238.

اللاّم	14	الثاء	03
الباء	13	العين	03
الحاء	13	الفاء	03
الجيم	09	الكاف	03

فأكثرُ الحروف عنده استعمالاً هي **(الدال، الراء، النّون، الميم، اللام الباء)**،وهو في ذلك يعتمد على الأصوات المجهورة، ليحقّقَ وضوحًا في الإيقاع،وزيادةً في قوة النَّغَم الموسيقي للمِدْحَة.

وعن حروف الرَّوي وشيوعها في دواوين العرب وأشعارهم يقول ابراهيم أنيس « إنَّ كثرة شيوع حروف الروي أو قلتها لا يعود إلى ثقلٍ في الأصوات، ولا إلى خفتها، بقدر ما تُعزَى إلى نسبة ورودها في أواخر كلمات اللغة، فالدال مثلاً تجيء في أواخر كلمات اللغة العربية بكثرة»[1] ،والملاحظ لقصائد ابن الخطيب يجد أنّ روي الدال هو الأكثر تكرارا ومن أمثلة هذا الرَّوي قوله:

خَلِيفَةٌ مِنْ صَمِيمِ العُرْبِ دَوْحَتَهُ *** فِيهَا انْتَهَى المَجْدُ مُسْتَوْفَى ومِنْهَا بُدِي.[2]

وقوله أيضًا من روي الدال:

أَنْتُمُ مِنْ مَنَاسِبِ الأَمْجَادِ *** مَوْضِعَ العِقْدِ مِنْ طُلاَ الأَجْيَادِ.
وَلَكُمْ من مناصب الفخر أسما *** وعز الندى وغرُّ الأيادي.[3]

[1] – ابراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ص 246.
[2] – ابن الخطيب، الديوان، ج1، ص 276.
[3] – المصدر نفسه :ج2، ص 294 .

أمَّا الحرف الذي يلي الدال هو حرف الراء، «وهو صوت تكراري يمنح القافية ايقاعًا موسيقيًا، ووقوع رويًّا شائعٌ جدًا في الشعر العربي»[1] ، وأمثلته عند ابن الخطيب قوله في المدح:

وخُذْ يَا إمَامَ الحَقَّ، بِالحَقّ ثَأْرَهُ *** فَفِي ضِمْن مَا تَأْتِي بِهِ العِزُّ والأجْرُ.
وأَنْتَ لَهَا يَا نَاصِرَ الحَقِّ فَلْتَقُمْ *** بِحَقٍّ فَمَا زيدٌ يُرْجَى ولاَ عَمْرُو.[2]

ويُعد الراء من الحروف الأثيرة لدى الشاعر إذ استخدمه بكثرة ونجده في المرتبة الثانية بعد حرف الدال.

ويأتي حرف النّون ثالثًا حيث وروده في الديوان، وهو كثير في ديوان العرب واستخدمه شعراء الاندلس بكثرة من أمثلته عند ابن الخطيب من قصيدته التي يمدح بها السلطان أبا سالم ، ويهنئه على انتصار جيشه في إحدى المعارك :

هنيئًا أمِيرَ المُسْلِمِينَ بِمِنّةٍ *** حُبِيتَ بِهَا مِنْ مُطْلَقِ الجُودِ مَنَّان.
لَزَيّنْتَ أجْيَادَ المَنَابِرِ بِالتِي *** أتَاحَ لَهَا الرَّحْمَانُ مِنْ آلِ زَيّان.
أيَادِيكَ لاَ أنْسَى علَى بُعْدِ المَدَى *** نَعُوذُ بِكَ اللَّهُمَّ مِنْ شَرِّ نِسْيَانِ.[3]

يقول النقاد عن رويّ النون ، وعن سبب وروده في أشعار العرب بكثرة «والقصائد النونية كثيرة الشُّيوع في الشعر العربي نظراً لخفة صوت النّون وجمال جرسه.»[4] فالشاعر يسعى جاهدا في كل ما ينظمه على أنْ يستميل قلب ممدوحه إليه ليرضى عنه ، لاسيما إن كان الممدوح ذا شأن كبير .

---

[1] – ابراهيم أنيس،موسيقى الشعر، ص 246.

[2] – ابن الخطيب، الديوان، ج1، ص 416.

[3] – المصدر نفسه : ج2، ص 592.

[4] – اميل بديع يعقوب المعجم المفصّل في علم العروض والقافية وفنون الشعر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ط1، 1991، ص 449.

أمَّا حرف الميم حلّ رابعًا، فقد جاء في أربعة عشر (14) قصيدة مدْحِية منها قول ابن الخطيب:

جَمَـعَ الإلــهُ "بيُوسُـفَ" شـمْلَ الـوَرَى *** وثَنَــى النَّوَائِــبَ ،وهِــيَ فَــاغِرَةُ الفَــمِ.
ثَبَـتُ الجَنَـانِ إذَا الخُطُـوبُ تَعَاظَمَـتْ *** مُبْتَسِــمٌ فِــي الحَــادِثِ المُــتَجَهِّمِ.[1]

ويعد حرف الميم بالإضافة إلى حروف أخرى كاللاّم والباء والدال والنّون من الحروف التي تجيء بكثرة، وإن اختلفت نسبة شيوعها بين شعراء الأندلس، وقد ساروا على النّهج الغالب للشعر العربي من حيث الاكثار من القوافي السَّلسَة والتي تسمح لهم بالتنقل بين المعاني والألفاظ بما يتوافق وطول القصائد المَدْحِيَة وغزارة معانيها، أضف إلى ذلك ميل الشاعر الأندلسي إلى القوافي المطلقة التي تُسْهِمُ في خلق كيان صوتي يخدم الموسيقى الخارجية، وقد رأينا ذلك عند شاعرنا ابن الخطيب؛ إذ جاءت قوافيه المطلقة تربو على مئةٍ وسبعين قصيدةٍ (170)، وما ذاك إلاَّ حرصًا منه على امتداد صوته للإشادة بممدوحيه بواسطة ما ينسجه من عذْب الموسيقى ليطرب لها سامعه، لا سيما إنْ كان المخاطب سلطاناً أو ملكًا، ولعلَّ خيرمثال على ذلك ما مدح به ابن الخطيب سلطان المغرب:

خَلِيفَــــةَ اللهِ سَــــاعدَ القَــــدَرُ *** عُــلاكَ مَــا لاَحَ فــي الــدُّجَى قَمَــرُ.
ودافعــتْ عَنْــكَ كَــفٌّ قُدْرَتِــهِ *** مــا لَــيْسَ يَسْــتَطِيعُ دَفْعَــهُ البَشَــرُ.
لــــيس لنــــا ملجــــأٌ نُؤَمِّلُــــهُ *** ســواك أنْــتَ التِّمْثَــالُ والــوزرُ.[2]

فما كان من السُّلطان إلاَّ أنْ أكرمه إكرامًا عظيمًا، لِمَا اسْتَعْذَبَ من سلاسة ألفاظها ودقَّةِ اختيار معانيها.

[1]- ابن الخطيب، الديوان، ص 539 .
[2]- المصدر نفسه: ج1، ص 403.

ومن خلال دراستنا للوزن والقافية نرى أنَّ ابن الخطيب لم يخرج في إطاره الثابت عمَّا عُرفَ عند الشعراء القدامى بل سار على نهجهم ، واقتفى أثرهم ، فنظم على عروض الخليل ملتزما في ذلك وحدة البحر والقافية، شأنه شأنَ الشعراء الأُوَلِ .

خاتمة

خاتمة :

وفي آخر هذا البحث الذي دار حول بناء قصائد ابن الخطيب المدحية، تلك القصائد التي خصّ بها العديد من شخصيات عصره، أصِل الى خاتمة هذا البحث لأستعرض جملة من النتائج التي توصلت إليها وهي كالآتي :

* أغلب مدحه جاء في سلاطين الأندلس يلي ذلك سلاطين دولة المغرب،و لم يكن في أغلبها صادقا لأنه يسعى إما لرضا ممدوحه وإما دفعا لشره ، إلا ماكان في حق السلطان الأندلسي أبوالحجاج يوسف ،فقد أكثر من مدحه، وذلك لفرط حبه له.

* أكثر القيم والفضائل التي خصّ بها ممدوحيه هي "شرف النسب" لاسيما مدحه لملوك بني نصر إذ أنهم من سلالة الصحابة الأنصار.

* جاءت قصائده المدحية على شكلين من ناحية البناء : الأولى قصائد مركبة تحتوي على مطلع فمقدمة فالتخلص ثم الغرض الأساسي فالخاتمة ، أما الشكل الثاني هو القصائد البسيطة ،حيث تخلى عن المقدمة، والمطلع ليلج موضوعه من الوهلة الأولى.

* كانت مطالعه موافقة لما اشترطه النقاد، ولم يشذَّ عن ذلك إلا نزرا يسيرا.

* أحْسنَ ابن الخطيب في تخلُّصاته إلى الغرض الأساسي في القصيدة، عن طريق الربط ، باستخدام إحدى أدوات الربط، أو عن طريق الربط المعنوي .

* أجاد أيَّما إجادة في ختم قصائده، فتارة يختمها بحكمة ، وأخرى يختمها بالصّلاة والتسليم على الرسول ﷺ .

* لغته كانت جزلة مع سهولتها ، وبعدها عن الغموض والتعقيد .

* كان لتضلعه في العلم وإجادته لعلوم الشرع ، أثر كبير في اِحتفاء ديوانه بكثير من التّضمين، والاِقتباس من القرآن ،والحديث النبوي، ونهله من معين الشعر العربي ممماأثرى معجمه الشعري .

* جاءت قصائده كثيرة الصّور فوظفها وأحسن التوظيف كالتشبيه والاستعارة والكناية ، وتفنن في استخدام المحسنات البديعية من مثل التصريع والجناس والطباق فعمد من خلال صوره الشعرية الى التّشخيص وبث الحياة في الجمادات .

* استخدم ابن الخطيب أغلب بحور الخليل فنظم عليها ، كما اِستخدم القوافي المطلقة على القوافي المقيدة ، وذلك للايقاع الذي تتركه في النّفوس، وأتى في رويّه على جلّ حروف الهجاء .

وفي الأخير هذا ما تيسر لي من نتائج أحطت بها في هذا البحث المتواضع، وأسأل الله أن تكون هذه الدراسة مفتاحا لدراسات جديدة لاحقة ، تسهم في إحياء تراثنا الأدبي والعربي .

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادروالمراجع :

القرآن الكريم برواية حفص عن نافع ،دار اليمامة ، بيروت ، لبنان ، ط3، 1983.

أولا – المصادر :

1-أحمد أبو العباس القلقشندي، صبح الأعشى في كتابة الإنشا، دار الكتب المصرية القاهرة، مصر، (د ط)، ج5.

2-أحمد بن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور، الرباط، المغرب، (د ط) 1973 .

3-أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، إنباء الغمر بأنباء العمر، تحقيق: حسن حبشي لجنة إحياء الثرات الإسلامي، القاهرة، مصر، ط16، 1998، ج1 .

4-أحمد بن علي بن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دار الجيل، بيروت لبنان، (د ط)، 1993، ج 3 .

5-أحمد بن محمد المقري التلمساني، أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق: محمد السقا وآخرون، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، مصر،(د ط)،1939 .

6-أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق احسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ط 1، 1968 .

7-امرؤ القيس بن حجر الكندي، الديوان ، تحقيق عبد الرحمن المصطاوي،دار المعرفة بيروت، لبنان ،ط2، 2004.

8-أوس بن حجر، الديوان، الخطيب التبريزي ، تحقيق وشرح محمد يوسف نجم، دار بيروت، لبنان (د،ط) 1980 .

9-جلال الدين القزويني ،التلخيص في علوم البلاغة ، شرح عبد الرحمن البرقوقي، دار الفكر العربي ، بيروت ، لبنان ،ط1 ، 1932.

10- حازم القرطاجني، منهاج البلغاء و سراج الأدباء، تحقيق : محمد لحبيب بن الخوجة، دار الكتب الشرقية ، تونس (د ت) ،1906

11- حبيب بن أوس أبي تمام، الديوان ، تقديم راجي الأسمر، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1994، ج1،

12- الحسن أبو علي ابن رشيق القيرواني ،العمدة في محاسن الشعروآدابه ونقده تحقيق: محمّد محي الدين عبد الحميد،دار الجيل سوريا، ط1981،5،ج1

13- الحطيئة ،الديوان، شرح ابن السّكيت والسكري والسجستاني، تحقيق عثمان أمين طه، مطبعة مصطفى البابي، مصر، ط1، 1958.

14- شمس الدين ابن جابر الأندلسي، الحلة السَّيرى في مدح خير الورى، تحقيق علي أبو زيد، علم الكتب، بيروت، لبنان، ط2، 1985

15- طرفة بن العبد، الديوان، تحقيق مهدي محمد بن ناصر، دار الكتب بالعلمية، بيروت، لبنان، الطبعة 3، 2002.

16- عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ ابن خلدون، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، لبنان، (د ط) 2000، ج 7

17- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تعليق محمود شاكر، دار المدني، جدة السعودية، ط1، 1991.

18- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر، مطبعة المدني، (د ط)، (ت)، جدة، السعودية.

19- عبد الله بن أبي شيبة ، المصنَّف في الأحاديث والآثار، تحقيق كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، السعودية، ط1، 1409 هـ، ج4.

20- عبد الله بن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، تحقيق ابراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 1982.

21- عبد الله بن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة/ مصر، ط2، 1967، ج1.

22- عبد الواحد بن علي المراكشي ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب،تحقيق محمد العريان، دار بهاء الدين، قسنطينة، الجزائر ،ط1، 2011.

23- العسكري أبي هلال ، الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق على محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل هيثم، دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1952.

24- الفرزدق ، الديوان ، تحقيق علي فاعور ، دار الكتب العلمية ،بيروت ، لبنان ،ط1، 1987 ،ص512 .

25- لسان الدين ابن الخطيب، أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق وتعليق: ليفي بروفنسال، دار المكشوف، بيروت، لبنان، ط 2 1956.

26- لسان الدين ابن الخطيب، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، تحقيق السعدية فاغية، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط3، 1989.

27- لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط 2، 1973، المجلد الأول.

28- لسان الدين بن الخطيب، الديوان، تحقيق: محمد مفتاح، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 1989.

29- لسان الدين بن الخطيب، أوصاف الناس في التاريخ والصلات، تحقيق محمد كمال شبانة، مطبعة فضالة المحمدية، المغرب،(د ت)،(د ط).

30- لسان بن الخطيب، اللمحة البدرية في الدولة النصرية، تحقيق محمد مسعود جبران، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 2009 .

31- المتنبي أبي الطيب ،الديوان، شرح أبو البقاء العكبري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، دار المعرفة، بيروت، لبنان، (د ت ط)، ج4 .

32- محمد ابن اسماعيل البخاري، صحيح البخاري، تحقيق محمد زهير بن ناصر، دار طوق النجاة، دمشق، سوريا، ط1، 1422 هـ، ج1 .

33- محمد الشوكاني، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، مصر، (د ت ط)، ج2 .

34- محمد بن القاسم بن محمد بن بشار، الأنباري، الزاهر في معاني كلمات الناس،تحقيق: حاتم صالح ، مؤسسة الرسالة ، بيروت، لبنان ،ط1 ،1992.

35- محمد بن مكرم بن على ابن منظور ، أبو الفضل، لسان العرب، دار صادر بيروت، لبنان، ط3 ، 1414 هـ ،ج13 .

36- مسلم بن الحجّاج، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان (دت)،(د ط)، ج3.

37- المعري أبو العلاء ، سقط الزند، دار صادر، بيروت، لبنان، (د،ط)، 1958.

38- نصر الله ابن الأثير،المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر،تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ،مصر ، (د،ت) ،1939 ،ج1.

39- نواس، الديوان، شرح محمود أفندي واصف، المطبعة العمومية، مصر، ط1 1898.

40- ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، مكتبة الهداية دمشق، سوريا، ط1، 2004، ج2 .

41- يوسف بن علي السكاكي، مفتاح العلوم، تعليق، نعيم زرزور، دار الكتاب العلمية، بيروت، لبنا، ط2، 1987.

ثانيا- المراجع

42- : ابتسام احمد حمدان، الأسس البلاغية للإيقاع البلاغي في العصر العباسي،مراجعة أحمد فرهود، دار القلم العربي، حلب ، سوريا ، ط1 ، 1997.

43- ابراهيم أنيس، موسيقى الشعر، مطبعة لجنة البيان العربي، مصر، ط2، 1952.

44- أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي عند العرب، دار النهضة، القاهرة، مصر، (د ط) 1994

45- أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، القضاء والقدر، تحقيق : محمد بن عبد الله مكتبة العبيكان، الرياض، السعودية ، ط1، 2000 .

46- أحمد حسن الزيّات، دفاع عن البلاغة، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط2 1967.

47- الأزهر الزنَّاد، دروس البلاغة العربية نحو رؤية جديدة، المركز الثقافي العربي بيروت، لبنان، ط1، 1992.

48- أشرف محمود نجا، قصيدة المديح في الأندلس (قضاياها الموضوعية والفنية عصر ملوك الطوائف)، دار الوفاء، الاسكندرية ، مصر ،ط1 ، 2003 .

49- امحمّد بن لخضر فورار، الشعر الأندلسي في ظل الدولة العامرية، دار الهدى عين مليلة،(د ط)،2009.

50- اميل بديع يعقوب المعجم المفصّل في علم العروض والقافية وفنون الشعر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1991.

51- بدوي طبانة، البيان العربي، (دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية) مطبعة الرسالة، مصر، ط2، 1958.

52- جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النّقدي والبلاغي عند العرب، دار التنوير، بيروت، لبنان، ط2، 1983.

53- حسين بكار، بناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء النقد الحديث دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط2، 1982، 212.

54- حسين عطوان، مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي، دار المعارف، مصر (د ت)،(د ط) .

55- حمدان حجاجي، حياة وآثار ابن زمرك (شاعر الحمراء)، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، (د ط)، 1989 .

56- خالد بن سعود الحليبي، البناء الفنّي في شعر عمربهاء الدين الأميري، نادي الأحساء الأدبي، السعودية، ط1، 2009.

57- سلام على الفلاحي، البناء الفنّي في شعر ابن جابر الأندلسي، دار غيداء، عمان الأردن، ط1، 2013.

58- صلاح جرار، قراءات في الشعر الأندلسي، دار المسيرة، عمان، الأردن، ط1 2007.

59- عبد الحليم حسين الهروط، النثر الفني عند لسان الدين بن الخطيب، دار جرير عمان، الأردن، ط 1، 2006 .

60- عبد الحليم حنفي ،المطلع ودلالاته النفسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب،مصر،(د ت) 1987.

61- عبد الرحمن علي الحجي ، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتّى سقوط غرناطة، دار القلم، دمشق، سوريا ط2، 1981.

62- عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت لبنان،(د ت)،(د ط) .

63- عبد العزيز عتيق، علم البديع في البلاغة العربية، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، (د ط)، 1974.

64- عبد الله الطيب، المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، الدار السودانية الخرطوم، السودان، ط2، 1970.

65- عبدالرحمان حبنّكة الميداني، البلاغة العربية (أسسها وعلومها، وفنونها) دار القلم دمشق، سوريا، ط1، 1996، ج2 .

66- عبدالعزيز عتيق، علم البيان، دار الآفاق العربية، القاهرة، (د ط)، 2004.

67- عز الدين اسماعيل، الشعر العربي المعاصر، قضاياه وظاهره الفنية والمعنوية، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ط3، 1978.

68- عزالدين اسماعيل، الأسس الجمالية في النقد العربي عرض وتفسير ومقارنه، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، د،ط، 1992.

69- عمر ابراهيم توفيق، الوافي في تاريخ الأدب العربي في الأندلس، دار غيداء عمان الأردن، ط1، 2012.

70- غازي يموت، بحور الشعر العربي (عروض الخليل)، دار الفكر اللبناني، لبنان ط2، 1992.

71- فاضل فتحي محمد والي، الفتن والنكبات وأثرها في الشعر الأندلسي، دار الأندلس السعودية، ط1، 1996 .

72- فوزي خضر، عناصر الإبداع الفني في شعر ابن زيدون، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود أبا بطين، الكويت، (د ط)، 2004.

73- فوزي عيسى، الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، دار الوفاء، الاسكندرية مصر، ط1، 2008.

74- فيروز الموسى، قصيدة المديح الأندلسية (دراسة تحليلية) منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، سوريا، (د،ط) 2009.

75- محمد بن حسن بن عثمان، المرشد الوافي في العروض والقوافي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2004.

76- محمد حماسة عبد اللطيف، البناء العروضي للقصيدة العربية، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط1، 1999.

77- محمد رضوان الداية، في الأدب الأندلسي، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1 2000 .

78- محمد شهاب الحاني، أثر القرآن الكريم في الشعر الأندلسي (من الفتح وحتى سقوط الخلافة) دار الشؤون العامة، بغداد، العراق، ط1، 2002.

79- محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس: العصر الرابع نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط4، 1997 .

80- محمد مسعود جبران، فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب (المضامين والخصائص الأسلوبية)، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، ط 1 2004.

81- محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري: استراتيجية التناص، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 1992.

82- محمود على الهاشمي، العروض الواضح وعلم القافية، دار القلم، دمشق سوريا ط1، 1991.

83- هشام منّاع، الشافي في العروض والقوافي،دار الفكرالعربي،بيروت، لبنان،ط4،2004.

84- يوسف شكري فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر(دراسة حضارية)، دار الجيل ،بيروت ، لبنان، ط1، 1993

85- يوسف طويل، مدخل إلى الأدب الأندلسي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1 1991.

الرسائل الجامعية

86- اِمحمد بن لخضر فورار، الشعر السياسي في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري،مذكرة لنيل درجة الدكتوراه في الأدب العربي، إشراف ربعي بن سلامة تخصص أدب عربي قديم كلية الآداب واللغات ،قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة منتوري ، قسنطينة، 2004 2005 .

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
شكر وعرفان	
مقدمة :	أ – ج
مدخل : الشاعر وبيئته	6–22
أولا – **بيئة الشاعر**	
1 : البيئة السياسية	7
2 : البيئة الاجتماعية	10
3– البيئة الفكرية والادبية	12
ثانيا : حياة ابن الخطيب	15
• مولده	15
• نشأته وتكوينه	16
•مؤلفاته	17
• مكانته بين العلماء	18
• اتصاله بالملوك	19
• نكبته القاصمة	21
الفصل الأول:هيكل القصيدة عند ابن الخطيب	23–62
1– القصيدة المركبة	25
• المطلع	25
• المقدمة:	31
أ– المقدمة الطللية	32
ب– المقدمة الغزلية	35
ج– المقدمة الحماسية	38
• التخلص	39

• الموضوع الرئيسي	41
• خاتمة القصيدة	57
2 – القصيدة البسيطة	60
الفصل الثاني: الدراسة الفنية	101-63
أولا: اللُّغة الشعريّة :	65
أ – المعجم الديني .	70
ب– المعجم الشعري .	74
ثانيا : الصّورة الشعريَّة :	77
1– الصورة البديعية :	77
أ–التصريع .	77
ب– الجناس .	80
ج– الطباق .	83
2–الصورة البيانية :	85
أ– التشبيه .	86
ب–الاستعارة .	88
ج – الكناية .	90
ثالثا : الوزن والقافية :	101-91
1–الوزن .	91
2–القافية .	96
الخاتمة:	102
قائمة المصادر والمراجع	105
الفهرس	114

الملخص بالعربية :

بناء القصيدة في الشعر العربي ركن أساسي،لا يستغني عنه أيّ شاعر مهما كان شكل شعره سواء أكان عموديا أم غير ذلك ، فبناء القصيدة يحدد جودتها الفنية،وبه يُقيّم الشاعر،وفي هذا البحث تطرقت الى هذا الموضوع، وتحديدا في أشعار ابن الخطيب المدحية حيث جاء بناء قصائده على نمطين أحدهما قصائد مركبة من مقدمة،وغرض رئيس، وخاتمة أمّا الأخرى فكانت بسيطة يستهلها بموضوعه مباشرة إذ سارت جُلُّ قصائده وفق ماسار عليه شعراء الجاهلية إلا أن لغته كانت سهلة واضحة ، كما تطرق البحث الى تأثرالشاعر بالقرآن والحديث النَّبوي الشريف، مُتَّخذا من البيئة الأندلسية معينا يستقي منها صوَرَه التي فرضت نفسها على شعراء ذلك القطر .

Résumé:

La sonstruction du poème est un acte indispensable çhez n'inporte quel écrivain.Cette étape constructif détermine la qualité artistique et grace à cette dernière on évalue l'écrivain. Dans cette recherche, Je me suisinteressé à ce sujet ,et exactement dans les poèsies du Ebn El Khattib; La construction a été basé sur deux modes:Le premier était çomposé d'une intrduction ,d'une recette et d'une conclusion .Pour la deuxieme elle était simple avec une directivete clair du sujet sachant que tous ses poème ont pris le même parcour que ceux qui sont avant l'islam sauf que sa langue était facile, La recherche a touché sur l'influence du coran sur l'auteur ainsi que l'influence du profète,il a pris de l'environnement Andalos une source qui reflete ses images qui ont marquée les écrivains de cette époque.